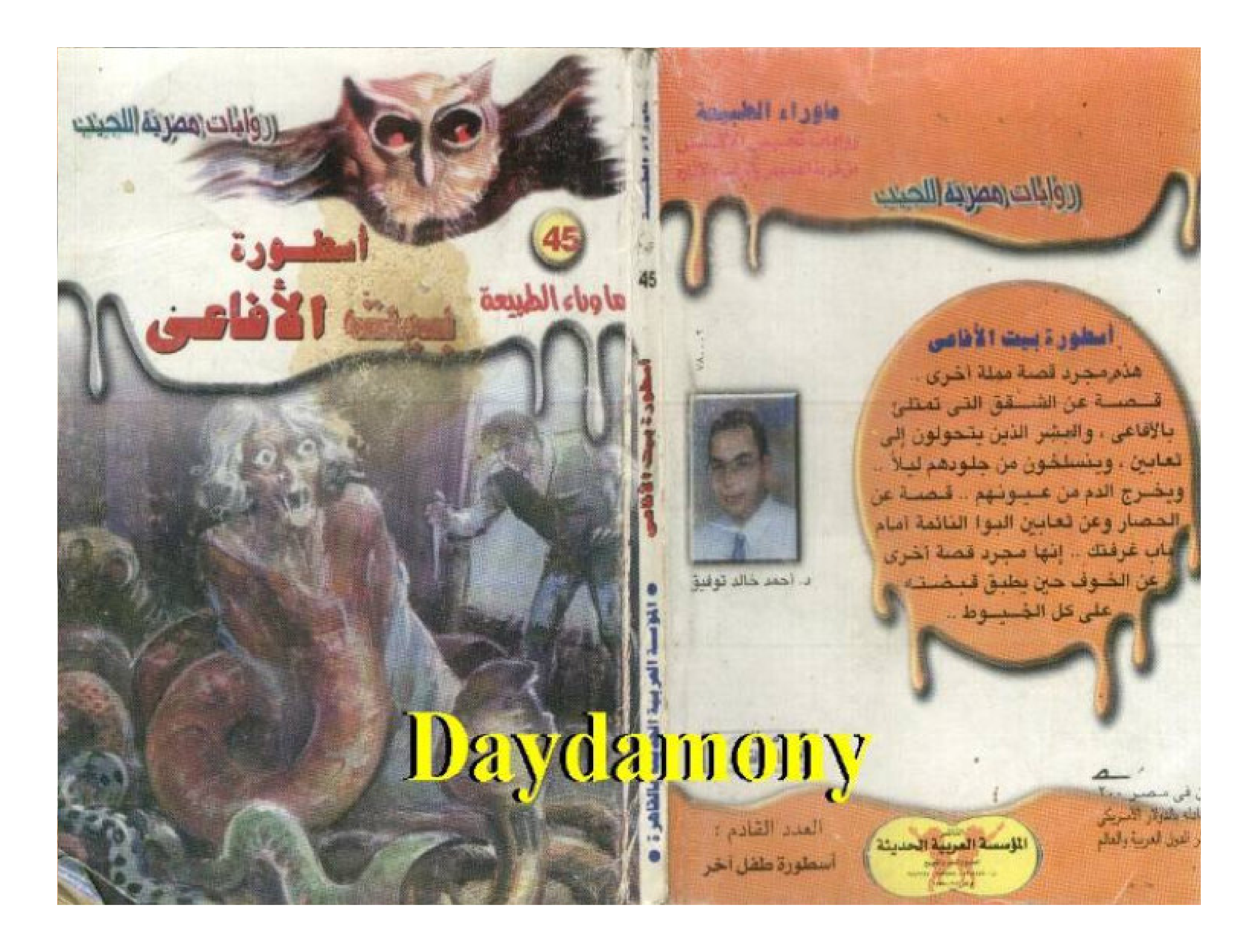

روايات مصرية للجيب
45
ما وراء الطبيعة
أسطورة
الأفاعى
ما وراء الطبيعة
45
أسطورة بيت الأفاعى
المؤسسة العربية الحديثة
ما وراء الطبيعة
روايات مصرية للجيب
أسطورة بيت الأفاعى
هذه مجرد قصة مملة أخرى ..
قصة عن الشقق التى تمتلئ
بالأفاعى ، والبشر الذين يتحولون إلى
ثعابين ، وينسلخون من جلودهم ليلاً ..
ويخرج الدم من عيونهم .. قصة عن
الحصار وعن ثعابين البوا النائمة أمام
باب غرفتك .. إنها مجرد قصة أخرى
عن الخوف حين يطبق قبضته
على كل الخيوط ..
د. أحمد خالد توفيق
العدد القادم :
أسطورة طفل آخر
المؤسسة العربية الحديثة
Daydamony

مقــدمة

كلا لا تخافوا ..

لن أبدأ كلامى بذات المقدمة المملة التـى أقول فيها إننى الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ الـدم المتقاعد بكلية طب كـذا ، والـذى قضـى حياتـه صائدًا للأشباح ، وفتح عشرات من توابيت مصاصى الدماء ، ومشى فى عشرات البيوت المسكونة ، والتحم مع عشرات المسوخ ، واجتاز عشرات التجـارب النفسية المبهمـة ، وعبر إلى عشرات العوالم الموازية ليس جانب النجوم بأهونها ، والذى لم يتزوج قط . لأن من عاش حياته يستحيل أن يتزوج ..

كلا .. لا تخافوا .. لن أقول هذه العبارات التى كررتها مرارًا حتى إننى لم أعد أعى معناها جيدًا .. سأبدأ مباشرة دون مقدمات ..

١ـ بيئة غير صديقة ..

« عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان ، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا فى الأرض الطينية .. أيتها الأرض .. ابتلعى ثانية ما خرج منك ! »

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

مرحبًا .. إن اسمى (محمود شوقى) ولا أتوقع بالتأكيد أن يثير هذا الاسم رعبكم ، أو يجعلكم ترتجفون هيبة وتوقيرًا ، أو تفركون أكفكم فى شغف .. أنا مجرد شخص ما ، له كل مزايا وعيوب الآخرين ، لكنى مضطر لتقديم نفسى إن كان لى أن أحكى الأحداث الرهيبة أو ـ على أفضل الظروف ـ غير السارة التى مرت بى فى ذلك المنزل .. فليس أسوأ من قصة لا نعرف سرها إلا قصة لا نعرف بطلها كما تعلمون ..

فى سن السابعة عشرة جئت إلى القاهرة لألعب الدور المعتاد : الطالب القروى الفقير الذى لا يهمه اختفاء (تنزانيا) من الخارطة قدر ما يهمه اختفاء القروش من جيبه ، وكنت ـ كما هى العادة ـ أحمل رأسًا مفعمًا بالأحلام التى تتلخص فى أننى يومًا ما ـ بعد خمس سنوات غالبًا ـ سأكون رئيس العالم ، أو المقرر العام لكوكب الأرض ، أو ملك (كولومبيا) لو تنازلت وقبلت المنصب .. وكما هى العادة أيضًا ؛ كان فى جيبى ثقبان لكن لم يسقط منهما مليم أحمر واحد .. لأنه كان خاويًا تقريبًا ..

ودلنى أهل النصح الذين هم ـ بالمصادفة ـ أهل الحل والعقد على منزل رخيص يناسب ميزانيتى .. إنه مكان نظيف ، وعدد البراغيث والبق به معقول نوعًا ، لم يتجاوز الحد الذى يحيله من منزل إلى وكر .. وأنا ريفى فقير لكنى من بيئة نظيفة لا تعتبر الهوام من معالم حياتها ..

هذه هى البداية كما تعلمون .. والباقى سهل التخيل إلى حد ما ..

فى أحد أحياء المطرية يقع المنزل الذى أعيش فيه الآن .. إن الوصول إليه سهل تمامًا .. كلا .. انس الوصفة التى تعرفها لأنها ستجعلك تضل الطريق تمامًا .. أنا أقول لك وصفة أسهل بكثير .. انتظر .. هل تعرف (زيزو) ؟ محل بيع الشطائر إياه .. أمامه ورشة لدوكو السيارات .. فقط خذ أول تقاطع على يسار الورشة ، وحاول ألا تقع فى ذلك المجرور القديم .. حسن .. إن أول حارة لاتهمنا وحاول ألا تتوغل فيها ، لأن بها بلطجية سيسرهم بالتأكيد ضرب شاب مرفه مثلك .. الحارة الثانية هى المطلوبة .. فقط سل إحدى النساء الجالسات للأبد ينقين الأرز على عتبات ديارهن - أنت تعرف أن هناك الكثير من الأرز دائمًا - عن بيت الخالة (رتيبة) .. كلا ..

لاتسأل .. هن سيسألنك من تريد وسيرمقنك فى فضول ، ولربما رأيت أحد فتوات الحارة يرمقك فى كراهية من وراء قضبان نافذة غرفته بالطابق الأرضى .. إنه يحافظ على حدود منطقته كما يفعل أى وحش يحترم نفسه فى الأدغال .. لذا عامله كما تعامل الوحوش وتجنب أن تثبت عينيك فى عينيه .. إن تثبيت العينين بالنسبة لوحوش الغابة علامة عدائية لاشك فيها ، ومن الوارد أن يهاجمك فى أية لحظة عندئذ ..

الآن أنت تقف أمام المنزل الذى أقيم فيه ..

توجد هنا خمس شقق .. وبالطبع يسكن أربعة من الطلبة فى شقة منها ، بينما أقيم أنا فى شقة قبلية وحدى .. لماذا ؟ أنا لا أكره البشر ولست مصابًا بالجذام على قدر علمى ، لكن مجموعة الطلبة جميعًا من قرية واحدة ، ويدرسون ذات العلوم فى معهد من تلك المعاهد التى لا تعرف

كيف تتذكر اسمها ، ولا تعرف مستقبل طلابها أبدًا .. ربما (معهد المحليات التعاونية) أو (معهد التعاونيات المحلية) أو أى شىء من هذا القبيل .. وكنت أنا أدرس علم الحيوان فى كلية العلوم ، ثم إنهم جميعًا جاءوا ها هنا قبلى بأشهر عديدة وربما أعوام .. وكنت سمجًا قليل الكلام معدوم الدعابة بطيئًا فى ردود الأفعال ، مما جعلنى جديرًا بهذا السجن الانفرادى ، ولم أجد فى كليتى أو قريتى قط من يشاركنى هذا المسكن ..

كانت علاقتنا من طراز (مساء الخير - مساء النور) أو ما يسميه الأجانب بـ (معرفة هز الرأس) .. ولو كنت واحدًا غيرى لعرفت كيف أهشم الجليد وكيف أدخل حجرتهم مقتحمًا فارضًا نفسى ، لكنى كنت بسبب خجلى أفضل الموت وحيدًا فى غرفتى على شىء كهذا ، ولم أكن أميل لهم بشكل خاص ، لكنى كنت أسمع من غرفهم ليلاً

تلك الضحكات التى توحى بأنهم يلعبون الورق أو الطاولة ، أو أشم روائح الطهو العذبة ، فكان الحنين يغمرنى لرفقة أترابى وممارسة مرح الشباب الذى أنا جدير به ..

هذا عن الشقتين الأوليين.. فماذا عن بقية الشقق ؟

فى الشقة التى تقع على يمينك فى الطابق الأرضى - نفس الطابق الذى أعيش فيه - تعيش صاحبة البيت العجوز (رتيبة) ، وهى شمطاء متشككة تعرف جيدًا أنها حادث ينتظر أن يقع .. يومًا ما سيجدونها مقتولة وقد سرقت مدخراتها ، وتنحصر الشبهات فى شخصى طبعًا لأن الظروف كلها ملائمة ، ولأننى فقير وحيد غامض أسكن أمام شقتها .. أنا أعرف هذا والعجوز تعرف هذا .. لهذا تقابلنى بنظرة كراهية كلما التقينا كأنها تقول لى : لماذا ستقتلنى أيها الوغد ؟ تبًا لك ! أنا لم

أفعل لك شيئًا !! ، وأقول أنا بعينى : تبًا لك ! لماذا أعدم بسببك وأنا لم أؤذك ؟!

تعيش هذه العجوز فى بيئة جديرة بالفئران ، وتقضى وقتها فى عد المال واختلاس النظرات للشارع فى كراهية ، وبالطبع لا يأتى أحد لتنظيف دارها ؛ لأن (كل هذه القصص المخيفة تبدأ هكذا) .. لا شأن لى بها على كل حال ما دامت لا تنوى أن تموت بطريقة مريبة وتخرب بيتى ..

الشقة الثانية ـ فى الطابق العلوى ـ يعيش بها موظف فقير له أسرة صغيرة ، ربما لا يستحق الذكر منها سوى (هيام) ، وهىَ طالبة فى كلية التجارة تملك كل الصفات التى تجعلنى أفكر جديًا : لماذا لا يتزوج المرء حين يريد أن يتزوج ؟ لا بد من سنوات وسنوات قبل أن أجرؤ على طرق باب أى بيت دون أن أتهم بالجنون وأطرد .. إن (هيام) رقيقة لطيفة متفهمة ، وعيناها من طراز العيون

التى تقول : سأمنح حبى لك لو كففت عن لعب دور الرعديد وقابلت أبى .. لا تقلق .. فأنا أراك جميلاً .. لا تقلق .. فأنا أراك لطيفًا ..

هذا النمط من الفتيات لا يستطيع الرجل أن يقاوم سحرهن ، لكنه لا يفكر فيهن إلا ليتزوجهن .. إنهن يرغمنه إرغامًا على أن يحلم بالبيت والأطفال ..

الشقة الثالثة ـ على سطح البناية ـ هى فى الواقع غرفة بائسة ، يعيش بها رجل وحيد مثلى اسمه (حسام) ، حديث المجىء هنا مثلى ، صموت مثلى .. يقولون إنه محاسب ويقولون إنه مخبول ، ويقولون إنه يمارس بعض الأنشطة التى أقشعر لمجرد الحديث عنها .. وإلا لماذا يحمل دومًا كل هذه الكتب الصفراء التى نعرفها والتى تتحدث عن السحر القديم والاتصال بالجان ؟ عرفت هذا بالطبع من .. من (هيام) طبعًا .. فهى الشخص الوحيد الذى يمكن الكلام معه فى هذا المنزل ..

لم تكن حياتى رائعة لكنها محتملة ، وما كان لينقصها ما حدث ..

* * *

متى شعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام ؟

كان ذلك فى يوم جمعة وهو يوم له رونقه الخاص كما تعلمون .. الاستيقاظ فى ساعة متأخرة .. الاغتسال .. حلاقة الذقن التى بدأت تخشوشن .. إشعال عود من البخور النيبالى والاستعداد لصلاة الجمعة ، وبعدها يبدأ الطهو .. أول وجبة حقيقية من أرز وخضر ولحم هذا الأسبوع ، وهى نعمة يمتد أثرها ليوم السبت ، ثم نعود إلى شطائر الفول والطعمية من (زيزو) ، وعلب السلمون مع البصل على سبيل البذخ .. هل قرأت الجزء الثانى من (الأيام) لـ (طه حسين) ؟ حسن .. أنت تعرف ما أتكلم عنه ..

مددت يدى - التى تعرف طريقها - فى الصوان

بحثًا عن جورب يصلح لارتدائه .. وهو بحث لايطول لأن لدى جوربين أحدهما مبتل دائمًا بانتظار أن يجف ، والآخر فى قدمى أو فى الصوان ..

ولكن ..

غريب ملمس هذا الجورب حقًا ! إنه ناعم أملس زلق .. ربما ينبض بالحياة كذلك ! وله ما يشبه ملمس الأسطوانة الدقيقة .. لو كان عندى مزاج للدعابات لقلت إنه يشبه الأفاعى .. ولكن ..

إنه أفعى !!

* * *

٢ ـ ضيوف غير مرغوب فيهم ..

إنها أفعى حقًا ..

لا مزاح هنالك ولا أنصاف حلول ..

• رميت بالشىء على الأرض وأطلقت صرخة قصيرة .. كانت أفعى طولها نحو نصف المتر ، تتلوى كأية أفعى أخرى .. وأنا نشأت فى الريف ولست ممن تثير الفئران أو الثعابين ذعرهم بشكل خاص ، لكن صدمة الاكتشاف لم تكن سارة بالتأكيد .. وإن بدا لى أنه من السخف أن أستغيث بأحد ، وأنهيت الموضوع بطريقتى وبالحذاء الذى كنت أوشك على انتعاله ..

وعلى ركبتى رحت أتفحص الشىء المريع الذى كف عن الأذى .. كان أفعى ولم يكن ثعبانًا ..

والفارق بين الكائنين بسيط لا يدركه إلا المختصون وبرغم دراستى لعلم الحيوان ، لم أكن أعرف وقتها أن الأفاعى ـ على عكس الثعابين ـ لها أنياب عليا متحركة تنثنى للوراء عند إغلاق الفك ، بينما نابا الثعبان ثابتان لا ينثنيان ، ولهذا يكون ناباه أقصر نوعًا ليتمكن من إغلاق فمه .. كما أن لبعض الأفاعى حفرة عميقة بين الأنف والعين ، لهذا يسمونها (ذوات الحفر) Pit Vipers .. وهو ما ينطبق بدقة مفزعة على هذا الكائن ..

من أين جاءت وكيف وجدت سبيلها إلى صوانى ؟ كلها أسئلة غبية فالبناية عتيقة رطبة ، ولسنا فى فندق من ذوى النجوم الخمس .. هذه الأشياء تحدث ..

ونسيت الأمر برمته وتخلصت من الجثة ، شاعرًا بكل المشاعر الهستيرية المصاحبة للثعابين ، والقديمة قدم الإنسان ذاته .. الشعور بأن يدى لن تنظفا أبدًا مهما غسلتهما .. الشعور بشىء ما

يزحف هناك تحت سروالى .. الشعور بأن الحياة
ستعود للثعبان لا محالة ولسوف يعود للانتقام ..
الشعور بأن سم الثعبان يتجاوز حدود الماديات ،
ويمكن أن يؤذينى دون أن أراه .. لكنى اعتمدت على
نشأتى الريفية الجسور ، ونسيت الأمر وذهبت لصلاة
الجمعة فقد حان الوقت .

* * *

ولم يظهر الثعبان الثانى - الذى كان ثعبانًا
لا أفعىً - إلا فى العاشرة مساء .. كان يخرج زاحفًا
من الحمام حين رأيته ، وأنا فى طريقى لـ ...
إحم ! لحلاقة ذقنى ..

لم يكن ودودًا ولا لطيف المشعر كزميله السابق ،
وقد احتجت إلى عدة ضربات بالحذاء كى أنتهى منه ،
ثم رحت أرتجف انفعالا بعض الوقت ..

من أين تأتى ؟ ولماذا الآن بالذات ؟ لو كانت

هذه الشقة موبوءة بها لاتضح لى هذا منذ أشهر ..
وكيف يجتمع نوعان متباينان من الثعابين فى شقتى
بالصدفة ؟

وفى هذه المرة لم أمر على الموضوع مر
الكرام .. حملت كشافًا كهربيًا ورحت أفتش الشقة
بذمة ودقة لم يتحل بهما مفتش فى جمرك .. توجد
حجرتان ومتاع قليل .. لا شىء تحت الفراش
ولا داخل الصوان .. الحمام خال ولا أجرؤ على أن
أقول (نظيف) .. لا شىء فى المطبخ حيث النملية
العتيقة - وصلت إلىّ مع الشقة ذاتها - التى يمكن
أن ينام فيها تنين جزيرة (كومودو) نفسه ..

فتحات ؟ لا أعتقد ولو كانت هناك فأنا لم أرها ..
فى قصة العصابة الرقطاء لـ (شيرلوك هولمز)
كانت الثعابين تأتى من فتحة تهوية لتقتل الوريثات
الثريات .. لا توجد هنا فتحة تهوية ولا أحد سوى
طالب ريفى فقير لا يريد سوى أن يترك فى حاله ..

يبدو أن هذا مستحيل هذه الأيام .. إن أنت خلصت من الفضوليين المزعجين ، فلن تعدم وجود أفعى هنا أو هناك .. لقد صارت الحياة لا تطاق ..

هذه المرة أنا متيقظ . ولن تكون هناك ثعابين أو أفاع ما لم ..

* * *

عندما أطفأت الأنوار وتمنيت لنفسى ليلة طيبة ، كنت أعرف أننى لن أنام سريعًا .. إنه أرق ليلة الجمعة الشهير ، الذى يتأتى من استيقاظ متأخر فى الصباح ، وتفكير فى هموم يوم السبت القادم .. ربما بعض أكواب الشاى الزائدة ليلاً وحنين لا ينتهى لبيتك وقريتك وأسرتك التى تنعم بلم الشمل الآن ..

رحت راقدًا على ظهرى أتأمل الظلام والضوء الخافت المتسلل من خصاص النافذة ، حيث الحارة الساهرة من حولى .. وبعد دقائق بدأ النوم يداعب جفونى ، وبدأت الأحلام تختلط بالواقع ..

سأكون رئيس العالم ، أو المقرر العام لكوكب الأرض ، أو ملك (كولومبيا) لو تنازلت وقبلت المنصب .. وفد من (كولومبيا) يتوسل أعضاؤه لى كى أقبل .. لا يا سادة .. سنيورى أنا لست كولومبيًا ولا أعرف شيئًا عن مشاكلكم ، كما لا أجيد لغتكم .. إننى أعتذر بشدة .. إنهم يبكون ويلطمون الخدود .. سنيورى أنت خير من يتولى هذا المنصب ومن دونك سوف .. سوف تأكلنا الثعابين ..

تأكلنا الثعابين ؟

وبين النوم واليقظة رأيت الشىء الذى يتسلل على خصاص النافذة ببطء مريب .. وقد احتاج عقلى إلى فترة أطول من اللازم ليدرك أن هذا ثعبان .. حقًا ثعبان .. لقد رأيت ثعابين أكثر من اللازم هذا اليوم حتى لم يعد الخطأ واردًا ..

وثبت من الفراش مضطربًا ، وهرعت أضىء النور الكهربى .. لحظات يتألق فيها النيون



وبين النوم واليقظة رأيت الشىء الذى يتسلل
على خصاص النافذة ببطء مريب ..

الرقراق ، وأخيرًا أرى الشىء الشنيع يتلوى هنالك .. وفى هذه المرة احتجت إلى ما هو أكثر من قوة الإرادة كى لا (أرقع بالصوت الحيانى) ..

كلا لم تكن ثمة ثقوب فى خصاص النافذة ، ولا سبب لظهور هذا الزاحف إلا أن أكون قد بحثت بإهمال حيث لم يكن ينبغى أن أبحث بإهمال !

كان أخضر اللون جميلاً مهيب المنظر .. لكننى لم أكن فى مزاج رائق لدراسة أنماط التخفى البيئى لدى الزواحف .. وهكذا ارتديت ثيابى وعيناى لا تفارقانه ..

وغادرت الشقة كلها عازمًا على أن أجد فى الصباح حلاً جذريًا ما ..

وقفت على الدرج متسائلاً : إلى أين أذهب ؟ كنت أسمع ضوضاء وأرى نورًا قادمين من شقة الطلبة فوق رأسى ، وفكرت فى أن أصعد لهم لأبتسم

بظرف وأطلب المبيت .. لكنى حين تخيلت وجوههم السمجة الكارهة ، لم أجد الشجاعة قط .. إن الثعابين أظرف على كل حال وبالتأكيد تفهمنى خيرًا من هؤلاء ..

وهكذا توكلت على الله ، وخرجت إلى الشارع الذى ساده الظلام والبرد ..

ولم تكن تلك هى الليلة الأولى التى كتب على أن أبيتها فى الشارع فى بيت العجائب هذا ..

* * *

فى الصباح ـ بعد ليلة نابغية قضيتها فى المقاهى والزمهرير المعتاد ـ عدت إلى الدار ، وقد ابتعت بعض شطائر الفول والطعمية من (زيزو) كالعادة ، وقد عزمت على أن أتبلغ بشىء من الطعام ، ثم ألحق بالكلية ، وعند عودتى يمكننى تمشيط الشقة فى نور مناسب .. يا لدفء شقتى ! ما أجمل الشقق القبلية فى الشتاء وأشنعها فى الحر ..

فما إن دخلت المطبخ حتى تقلصت أمعائى .. لقد كان مطبخ الشقة مزدحمًا بعدد يتجاوز الستة من هذه الكائنات ، بعضها ضخم يذكرنى بالـ (بوا) التى نراها فى السينما ، وبعضها ضامر أدنى إلى ديدان الأرض ..

كان أحدها له ذيل من حلقات متداخلة ، يهزه هزًا حثيثًا محدثًا صوت خشخشة خفيضة مفزعة .. شك شك شك شك ! ثعبان الجرس ؟! هل هو موجود فى مصر ؟ وإن كان غير موجود فكيف جاء هذا الثعبان المستورد إلى هنا ؟

أمسكت بالمكنسة وهويت بها على الرءوس كأنى (عنتر العبسى) فى حومة الوغى .. لكنى لم أتمن تقبيل الأفاعى لأن لها بريق ثغر (عبلة) كما كان (عنتر) يقول .. يا للبشاعة ! يا للاشمئزاز ! ليس أبشع من رؤية الثعبان إلا قتله ..

أخيرًا انتصرت ، وصار على أن أمشط الشقة بعناية .. ولننس المحاضرات اليوم .. إن ما لدينا ها هنا تطبيق عملى جيد لعلم الحيوان .. وإننى لأتمنى لو أرى الدكتور (عزام) أستاذنا فى موقف مماثل .. هل سيمنعه علمه من الاشمئزاز فالذعر ؟

لو لم أكن ريفيًا ـ كما قلت ـ لتوقف قلبى هلعًا ..

ومن جديد بدأت البحث ، ومن جديد لم أجد شيئًا .. لو ظهر لى ثعبان جديد فمن المحتم أن الأمر يدخل فى مجال الخوارق ..

* * *

٣ ـ حلول لا تجدى ..

وحملت مجموعتى الثمينة من الثعابين فى كيس بلاستيكى ، وغادرت الشقة عازمًا على أن أتجه إلى من أعرف أنه يفهم فى هذه الأمور ..

وعلى السلم قابلتها متجهة إلى الكلية وهى تحمل حافظة أوراق وكتابًا عن إدارة الأعمال .. (هيام) طبعًا .. جارتى الحسناء التى لم تبد حسناء فى هذا الوقت بعينيها المنتفختين اللتين لم تظفرا بنوم كاف .. لعلها الثعابين ؟! ولاحظت أنها ازدادت بدانة فى الآونة الأخيرة .. تبًّا ! أنا لا أطيق البدانة..

دنوت أكلمها بتلك العبارات السريعة الهامسة التى نتبادلها حين نلتقى لبضع ثوان ..

كان سؤالى بعد التحية بسيطًا جدًا ، وإن لم يكن أفضل ما يقوله المرء للفتاة التى يميل إليها حين يلقاها صباحًا :

ـ « هل توجد ثعابين هنا ؟ »

وكان جوابها بعد الضحكة الساخرة مختصرًا جدًا :

ـ « ألم يخبروك عندما جئت ؟! »

فلما رأت تعبير البلاهة على وجهى اتسعت ضحكتها أكثر ، وقالت :

ـ « لا تصدق كل ما تسمع ! هذه مجرد دعابة .. بالطبع لم تصل الأمور إلى درجة الثعابين .. هناك الكثير جدًا من الأبراص على كل حال » .

ـ « ولم ترى ثعبانًا واحدًا طيلة هذه السنين ؟ »

ـ « بالطبع لا وإلا لما وجدتنى حية أرزق .. دعنى أصارحك أننى أمقت الثعابين إلى حد ما .. ولكن لماذا تسأل ؟ هل رأيت شيئًا ؟ »

أما وقد وضعت الأمور فى هذه الصورة ، فقد بدا واجبًا علىّ أن أرحل دون تعليق .. أو بتعليق على غرار (لاشىء .. كنت أتساءل فحسب !)

لماذا إذن كنت أنا أول من ابتلى بهذه الأشياء ؟

* * *

فى قصة قديمة لـ (هـ . ج . ويلز)(*) ، قتل بطل القصة أحد السحرة فى (سيراليون) ، وقد أدت لعنة الساحر المنصبة عليه إلى أنه صار محاطًا بالثعابين فى كل حين وفى كل صوب ، هذا بالطبع بالإضافة إلى أشياء أخرى لا تفيد موضوعنا .. ولم يتخلص من هذه الكارثة إلا بالطريقة القديمة : قطع شريان عنقه بالموسى ..

لا أذكر أننى قتلت أى ساحر إفريقى على الأقل

(★) قدمناها فى (روايات عالمية للجيب) رقم (١٦) .

فى الأشهر الماضية ، كما أننى لست من هواة الانتحار .. فلتقتلنى الثعابين لكنى لن أفعل شيئًا بنفسى ..

* * *

هذا مكتب الدكتور (عزام) فى الكلية .. ليس كل من يدرس علم الحيوان فاهمًا للثعابين ، لكن دكتور (عزام) كان مولعًا بالزواحف إلى درجة العشق ، واهتمامه بها يتجاوز موضوع الدراسة إلى هواية حقيقية لا يكف عن تنميتها .. وأحيانًا كنت ترى فى ملامحه ملامح سلحفاة عجوز بلا مبالغة .. باختصار كان هو الرجل الوحيد فى كلية العلوم الذى يعرف تفاصيل التفاصيل عن الثعابين ..

كان من الأشخاص الودودين ، لكنه سريع الغضب حقًا .. عندئذ كان يتحول إلى نوع من الكوبرا التى تثب فى وجوه مهاجميها ..

ـ « هل يأذن لى أستاذى باستشارة ؟ »

قال فى نفاد صبر :

ـ « لن أتنازل عن نسبة الحضور إلى محاضراتى لو كان هذا ما تسأل عنه .. إن المنهج الذى على أن أدرسه .. »

قاطعته فى أدب ، وقلت :

ـ « بل الموضوع لو سمحت لى يتعلق ببعض الثعابين .. »

وعلى مكتبه ـ فوق جريدة ـ فتحت الكيس ، وأفرغت الثعابين التى تسليت بقتلها على مدى أربع وعشرين ساعة .. فصفر بفمه معلنًا انبهاره ..

ـ « هل كنت تجمعها فى صحراء (أبو الريش) ؟ »

قلت فى أدب دون أن أجسر على الجلوس :

« بل فى شقتى يا سيدى !! »

تأمل النماذج التى أمامه وغمغم :

« لا تمزح يا فتى .. هذه الأنواع لا تحتشد فى مكان واحد إلا فى أجمل أحلامى .. إن ما تقوله هو ببساطة مستحيل ! »

قلت له فى إصرار :

ـ «بل هى الحقيقة والله على ما أقول شهيد ..»

مد يده يتحسس الثعابين فى شغف ، وهو يغمغم :

ـ « ثعبان الجرس .. بوا كوبى .. آهاه ! ثعبان صنوبر .. آدر مميت .. رياه !! فير دى لانس .. أفعى راسل .. يا سلام ! يا للجمال ! يا لها من مجموعة قيمة ! المشكلة الوحيدة هى أنك وقح وكاذب ، ولابد من مجلس تأديب ليقوم بفصلك !! »

صحت فى رعب ، وقد ارتجت مفاصلى :

ـ « و .. ولماذا يا سيدى ؟!! »

ـ « لا أعرف سر مزحتك لكنك تحاول التلاعب بى .. رجل فى سنى ومركزى لا يعد التلاعب به تسلية محترمة .. **هات الكارنيه الخاص بك !!!** »

وأنا طالب محترم .. طالب من الذين يحترمون أساتذتهم حقًا ويجلونهم حقًا ، وترتعد فرائصى لو قابلت أحدهم يمشى فى الشارع .. ما كان غضبه من الأشياء التى تناسب شخصًا حساسًا مثلى ..

لذا تماسكت بعد لأى وقلت له ، وأنا لاشعوريًا أتحسس جيبى حيث الكارنيه كى لا ينتزعه أحد من هناك :

ـ « سيدى .. يمكننى تقديم الكارنيه ويمكن أن أستحق أى عقاب .. لكن هذا لن يغير حقيقة أننى وجدت هذه الأنواع فى شقتى فى يوم واحد ! »

ـ « وأنا أرفض تصديق هذا ببساطة ؛ لأننى رجل علم .. »

ثم أشار للباب فى اشمئزاز ، كما يطرد (يوسف بك وهبى) ابنه الفاسد فى المسرح ، وقال :

ـ « يمكنك الانصراف دون عقاب .. ولسوف أتابعك بحرص لأرى إن كنت وقحًا يتظرف أم مجرد معتوه ! عندها .. عندها ! »

وكانت بقية العبارة واضحة .. يبدو أن الفصل ليس أقصى عقاب فى جعبته .. لذا اتجهت للباب ، ولم يحاول أن يدعونى إلى أخذ الثعابين معى ـ وهو ما كنت زاهدًا فيه أشد الزهد ـ لأن إغراء الاحتفاظ بهذه العينات النادرة كان أقوى من الحزم لديه ..

هكذا يمكن تلخيص الموقف فى أن ما يحدث لا تفسير له ، ولا توجد سوابق عليه ، وعلى وحدى أن أجد تفسيرًا ما ..

* * *

وهنا خطر لى أن أسأل (عاطف) زميلى فى الكلية ، فهو ممن يفهمون فى هذه الأمور .. المشكلة هى أن هناك عددًا أكثر من اللازم ممن يفهمون فى هذه الأمور فى هذه الأيام ..

إن (عاطف) من قرية مجاورة لقريتى ، لكنه يكبرنى فى السن والمرحلة الدراسية ، وله علاقة حميمة طويلة بالقاهرة ، حتى إنه صار من أبنائها فعلاً .. لقد صار يحفظ أرقام الحافلات ، وهو يجيد عبور شارع (صلاح سالم) على مرة واحدة دون أن ينتظر مثلى معجزة ما توقف تدفق السيارات ، وهو لا يخاف سيارات (الميكروباص) المجنونة ويمر من أمامها .

وقال لى (عاطف) حين أخبرته :

ـ « لا عليك .. لقد اعتدنا هذه المواقف حيث أقيم ، وعليك أن تتعلم أن الثعابين ليست عارًا عليك أن تخجل منه .. إن لكل مشكلة حلاً .. »

فى افتتان بعلمه تساءلت :

ـ « ماذا تفعل لو كنت مكانى ؟ »

ـ « العطار يملك حلولا للمشاكل من هذا النوع .. والمرحومة أمى كانت تقول : كله عند العطار ما عدا (حبّنى غصب) » .

ـ « لا أريد عطارًا يملك حلولاً لمشاكل الحب من طرف واحد .. كل ما أريده هو الخلاص من أفعى الـ (فير دى لانس)(*) » .

* * *

وهكذا اتجهنا بعد الدراسة إلى أحد العطارين فى باب الشعرية ، فابتعنا كيسًا من (الشيح البابونى) وهو مسحوق شيطانى الرائحة ، له القدرة على طرد روحك نفسها فكيف بالثعابين ؟ وأقسم الرجل إن

(*) فير دى لانس عبارة فرنسية معناها (رأس الرمح) .. وأعتقد بذكائى المعروف أن هذه الأفعى تشبه الرمح !

هذه المادة كفيلة بإبعاد الثعابين عن دارى عامين .. إن للبدو أساليبهم كما قال ..

سألته فى فضول علمى :

ـ « هل يمكنه طرد أفعى الـ (فير دى لانس) ؟» .

نظر لى لحظة ليرى ما إذا كنت أسخر منه ، ثم تغلبت عليه غريزة التاجر فصاح :

ـ « بل وأفعى (ابن فرناس) ذاتها .. إن العلم كله هنا يا بك .. »

ـ « وهل هناك أفعى اسمها (ابن فرناس) ؟ »

ـ « بالطبع .. (أمال) .. كل شىء موجود يا بك .. »

ثم انصرف إلى زبونة تزن قنطارًا تبحث عن أعشاب تجعلها أكثر بدانة ..

وعدت لدارى متوجسًا ، فقمت بتعليق ثلاثة

أكياس قماشية ملآى بالمسحوق فى ثلاثة مواضع استراتيجية ، واعتمدت فى هذا على المسامير الصدئة التى نثرها من كانوا هنا قبلى .. لم أتوقع نتائج سحرية لأن الحلول السحرية لا تجىء بهذه البساطة ، وإلا كانت الحياة أكثر رغدًا وبهجة ..

وبدأت أمارس حياتى المعهودة : فتحت علبة من السردين ، وسحقت بقبضتى بصلة صغيرة واستعددت لتناول الغداء حين دخلت إلى المطبخ لأجلب رغيف خبز ، وهنا وجدت أن الكيس لم يكن بهذه الفعالية .. لقد كان ثعبان صغير يلتف حوله ويتشممه بأنفه وهو معلق على الحائط !

ـ « لم يكن علاجًا فعالاً يا أخ عاطف !! أعتقد أن الثعابين أحبت الشيخ البابونى ، ولست مهتمًا بأن أوفر لها حياة رغيدة هانئة .. »

هزّ رأسه وابتسم بما معناه أننى أقول شيئًا معروفًا :

ـ « كنت من البداية أعرف هذا .. إن أكثر هؤلاء القوم نصابون .. »

ـ « ولماذا كلفتنى ثمن المسحوق إذن ما دمت تعرف كل شىء ؟ » .

ـ « كى ترى أنه لا مناص من الحل الثانى » .

وفى ثقة تخدعنى فى كل مرة قال :

ـ « أنا .. أعرف رفاعيًا لا بأس به ! »

* * *

٤ـ مغامرة الرفاعى ..

بغبائى المعتاد فى هذه الأمور تساءلت :

ـ « أنت تعرف رفاعيًا ؟ »

ـ « طبعًا .. لا تقل إنك لا تعرف هؤلاء القوم .. »

ـ « بل أعرف من هم ، لكننى لا أعرف من أين يجيئون ، ولا فى أية كلية يتخرجون ، ورقم هاتفهم غير مذكور فى دليل الهاتف على ما أظن !! »

ـ « أنا أعرف واحدًا .. ولسوف يثير دهشتك .. »

ـ « لم يعد شىء يثير دهشتى منذ وجدت أفعى (فير دى لانس) الأمريكية فى حمام شقتى .. »

* * *

وفى السابعة مساءً جاء الشيخ (حمدون) إلى دارى ، وهو رجل خبيث الرائحة والنظرات والكلام .. وقد حرص على أن يبدو نصابًا بلحيته البيضاء المشعثة التى خضب أطرافها بلون أحمر ، والتى تغطى صدره ، وثيابه المزركشة المبهرجة التى خاط أكثرها من رايات الطرق الصوفية الخضراء الزاعقة .. تلك الرايات التى تقع فى يده بعد الموالد .. وعطره الدسم الذى يذكرك برائحة بودرة (التلك) ، وعصاه المزخرفة المزينة بكل خرقة وجدها فى حياته ، والكيس القماشى المعلق فى ذراعه .. إنه آخر جيل من أسرة رفاعية عريقة لابد أن أحدهم كان من سحرة (فرعون) الذين ألقوا عصيهم أمام سيدنا (موسى) عليه السلام .. فى تلك الأيام السحيقة كانوا يعرفون ما يفعلون ، أما هذا ..

ما إن دخل دارى حتى بدأ فى إلقاء عبارات

لامعنى لها ، يقولها بسرعة غير عادية ، وشفتاه تهتزان كما يهتز ذيل (البرص) بعد قتلـه .. وتشمم الجو وغمغم فى استمتاع :

- « شيح بابونى !! يا سلاااالم !! ما أجملك !! »

ومشى فى أرجاء الشقة وهو يزوم كالقطط .. نظرة رفاعية كارهة للثعابين تلتمع فى عينه ، وبالتأكيد لم تلتمع من قبل فى عين حيوان (مانجوست) فى (كشمير) ..

ثم أشار إلى ما تحت الفراش ، وقال كلمة واحدة :

- « هنا ! »

ودون كلمة أخرى خر زحفًا على ركبتيه وغاص تحت الفراش ، فلم نعد نرى سوى ساقيه النحيلتين فى جوربيهما الأبيضين المتسخين .. بعد ثانية واحدة خرج من هناك وعلى وجهه علامات

الانتصار ، وفى يده ثعبان بائس يحاول التلوى والإفلات بلا جدوى ..

ودسه فى الكيس ، وأغلقه بأنشوطة ثم واصل مهمته ..

- « شيح بابونى !! يا سلاااالم !! ما أجملك !! »

ودخل المطبخ ، دون أن يكف عن إبداء عشقه المبرح للشيح البابونى ، فوقفت مع صاحبى نتهامس بالخارج :

- « من أدرانا أنه لن يخرج الثعبان ذاته من الكيس لنحسبه جديدًا ! »

- « سنعد الثعابين بعد انتهاء مهمته .. ثم إننا لانتحدث عن عرض حواة .. إن الرفاعية رسالة !! »

- « لم أر صاحب رسالة يصر على تقاضى ثلاثين جنيهًا مقابل تأدية رسالته ! »

ـ « لابد للرجل من أن ينفق ليعيش .. »

كان هذا هو موضوع الحديث حين دوت صرخة الرجل .. صرخة نسائية جدًا حادة جدًا ، كأنها امرأة رأت فأرًا يطل من كم ثوبها ..

وهرعنا إلى المطبخ لنجد الرجل يولول ، بينما ثعبان صغير الحجم ينشب أسنانه فى ذراعه العارية حتى المعصم .. لم تكن صرخة الرجل من النوع الرفاعى على الإطلاق ، واضطررت إلى أن أنتزع الثعبان من ذراعه انتزاعًا ، وألقى به أرضًا قبل أن ينشب نابيه فى لحمى أنا .. وهرسته بحذائى غير رفيق .. لقد كانت ثعابين دارى أقوى من تعاويذ الرفاعية مجتمعين ..

وفى هذه اللحظة ، سقط ثعبانان صغيران من أعلى كم الرجل على الأرض .. النصاب !! إنها الحيلة العتيقة لهم : يدخلون الدار وهم يخفون



وهرعنا إلى المطبخ لنجد الرجل يولول ، بينما ثعبان صغير الحجم ينشب أسنانه في ذراعه العارية ..

ثعبانًا أو اثنين من نوع غير سام فى ثيابهم ، ثم يظهرون ما لديهم لأصحاب الدار باعتبارهم قد حلوا المشكلة ، وأتموا عملية التطهير! والمشكلة هنا هى أن الرجل أضاف ثعبانين إلى ما كان فى دارى بالفعل !!

راح الرجل يولول وهو يتأمل الدم المنساب من ثقبين صغيرين فى ساعده ، فقلت له مطمئنًا :

- « لا تجزع .. إن سم الثعابين لا يؤثر فى الرفاعية ! »

وتأملت الثعبان الذى قتلته حالاً وقلت فى رضا :

- « ثعبان المرجان .. هذا جميل ! إنها المرة الأولى التى أراه فيها .. يبدو جميلاً .. »

صاح فى رعب :

- « تبًا لك ! تبًا لك ! أنت لا تفهم .. لا تفهم !! »

ثم أخرج إصبعين من أصابعه ليعد عليهما :

- « أقسم باللّه العظيم الذى لا يضر مع اسمه شىء أن هذا البيت نجس ، وأنك امرؤ سوء .. »

- « وأنا أقسم باللّه العظيم إنك نصاب !! وهذا يكفينى حاليًا . »

وطردته من دارى مع صديقى العزيز طبعًا ، ونصحته أن يأخذ جرعة من المصل المضاد لسم الثعابين فى أقرب فرصة (هذا بالطبع لو وجد ترياق سم ثعبان المرجان فى المستشفى العام) .. ثم استندت إلى الباب ألهث وأفكر فى حقيقة هذا كله ..

إننى لفى مأزق مخيف .. مخيف ..

وفى هذه المرة صممت على أن أغادر المنزل .. فلا خير فيه من أى نوع ، وليقع تفسير ما يحدث على عاتق البائس الذى سيجىء ها هنا بعدى ..

* * *

فى الصباح ، طرقت باب العجوز صاحبة المنزل ،

ففتحت لى شراعة الباب كعهدها ، ودفعت لها باقى إيجار الشهر ، وأخبرتها أننى عازم على الرحيل غدًا بسبب الثعابين .. لم تبد أية دهشة ـ كأننى أتكلم عن انقطاع المياه ـ لكنها تذمرت كثيرًا لأننى أرحل بعد بدء الموسم حيث يستحيل أن تجد مستأجرًا الآن ، وقالت إننى أفسدت عليها موسمًا بأكمله ، وإنها لو كانت جشعة لطالبتنى بدفع باقى إيجار العام الدراسى ..

كنت أكلمها وعينى على وجهها المجعد البشع ، وخطر لى أننى لا أكاد أرى لها جفنين .. أقسم إن عينيها لم ترمشا لحظة طيلة كلامها .. هو خاطر عابر سرعان ما نسيته .. والآن أتذكره جيدًا .. وأسأل نفسى سؤالاً بلا جواب :

لماذا لم يثر هذا رعبى وقتها ؟!!

الآن أبدأ حزم ثيابى وكتبى .. سأبدأ البحث عن منزل آخر حالاً .. هى مهمة عسيرة لكنها ليست

مستحيلة خاصة لو وجدت طالبًا يحتاج إلى رفيق مسكن ..

وقضيت يومًا أسود بلى حذائى فيه ، ودخلت كل حارة ، وسألت كل قهوجى وكل سمسار عن شقة ، ودخلت أوكارًا تشبه أوكار العصابات ، ومشيت فى أزقة تشبه مجاهل إفريقيا ..

لكن ما حسبته سهلاً لم يكن كذلك .. وسرعان ما أدركت أن البحث عن مسكن بعد بدء الموسم شبيه بالعثور على فتاة أحلامك بعد ما تزوجت وأنجبت عشرة أطفال ..

* * *

وعند ميلاد المساء عدت لدارى منهكًا ، وأدركت أن أمامى حلين : إما القضاء على المشكلة ، أو العودة إلى قريتى لأخبرهم أننى فشلت فى دراستى بسبب كثرة الثعابين ! لن يروق هذا لأبى كثيرًا

خاصة أنه التهم بعضها يومًا ما فى حرب ١٩٤٨ حين كان جنديًا فى حصار (الفالوجا) ، وكان يعتبرَ من يخاف الثعابين إنسانًا غير طبيعى ، غير جدير بإنسانيته .. ليس أمامى حل سوى مقابلة العجوز غدًا وإخبارها بأننى عدلت عن الرحيل ..

وبالطبع كان على أن أجد ثعبانين ، أحدهما فى دورة المياه ، والآخر كان فى فراشى .. نعم .. لقد صارت هذه المشاهدة معتادة على كل حال .. لكنى لم أتعرف نوعيهما ، وقد جعلنى هذا أشعر ببعض الخجل من جهلى ..

* * *

٥ ـ إنهم يأتون ليلا ..

وفى التاسعة مساءً دق أحدهم الباب ، ففتحت لأجد (حسام) جارى المحاسب الغامض إياه .. واسمه ـ كما قلنا ـ (حسام) .. نسيت أن أصفه لكم وهو أبسط حقوق القارئ .. أعرف اتجاهات القصة الحديثة ، والشخصية الرقمية ، والشخصية الفورسترية .. الخ .. لكن الطريقة العتيقة تظل هى الأفضل وهى المحببة للقارئ .. لنقل إن الرجل كان فى منتصف العمر .. أصلع الرأس .. ممتلئ قليلاً .. يضع عوينات سميكة من الطراز الذى تشعر بأنه يضغط على كرتى عينيه ، وكأن كرتى عينيه ضفدعتان محفوظتان فى مرطبان زجاجى فى معمل كليتى .. وكان من الطراز المزعج الذى يتنفس بصوت عال فى أذنك ، ويتحسس أرنبة أنفه من

حين لآخر .. باختصار لم يكن أجمل ولا ألطف شخص يمكن أن يزورك فى المساء .. وكنت أدرك أنه يدارى عقدًا نفسية لا حصر لها ، وجبالاً من الكبت .. هذا شىء تقوله ملامحه بدقة .. لا أحب الاعتماد على الفراسة كثيرًا ؛ لكن الروح كالسائل غالبًا ما يكون لها شكل الوعاء الذى تحفظ فيه ..

كنت أمقته .. ربما أهابه نوعًا ، لكنه كان بشوشًا مهذبًا ، وطلب الإذن بالدخول ، فأذنت له ..

قال لى وهو يتأمل الشقة :

ـ « سمعت أنك تفكر فى الرحيل .. »

إن الأخبار تنتقل سريعًا ها هنا .. قلت له :

ـ « إننى عدلت عن ذلك لسبب بسيط .. هو أننى لم أجد مكانًا آخر .. »

ـ « لنتكلم بصراحة .. هل توجد ظواهر معينة مريبة هاهنا فى الفترة الأخيرة ؟ »

لأكون صادقًا أقول إننى لم أتوقع هذا على الإطلاق .. هذا الموضوع لا يعرفه سواى والعجوز و(عاطف) وربما الدكتور (عزام) .. كلا .. أنا لم أخبر (هيام) بالتفاصيل .. ومن العسير أن أتصور وجود علاقة بين الرجل وبين واحد من هؤلاء ؛ فمن أين عرف أن هناك « ظواهر معينة مريبة ها هنا فى الفترة الأخيرة ؟ »

سألته فى حذر :

ـ « مثل ؟ » .

ـ « مثل كثرة معينة فى الـ .. فى الـ .. فى نوع من الهوام ؟ »

ـ « لا جديد فى هذا .. لقد قلته لصاحبة الدار .. »

ـ « هلا جئت معى إلى حجرتى على السطح ؟ »

فكرت فى الأمر مليًا ثم وجدت أننى لن أخسر

شيئًا .. لا يبدو لى قادرًا على قتلى ، فهو ضئيل الجسد ، له نظرات مذعورة تثير الشفقة ، وهكذا خرجت معه إلى الدرج المظلم خبيث الرائحة ، وأنا أتساءل عما سيقوله لى .. وصعدنا بضع درجات فى السلم المظلم عطن الرائحة .. ها هو ذا السطح الكئيب الذى علقت به بعض حبال الغسيل ، وثمة (عشة فراخ) خالية وبعض قطع القرميد هنا وهناك ..

على باب السطح تصلب ، وأشار إلى الأرض ..

كانت هناك فى الضوء الخافت عدة أكياس فارغة من النايلون ملقاة جوار السور القرميدى الخشن ، وكان بوسعى أن أدرك أنها من نوع رقيق جدًا غير مألوف .. الغريب هو أن حجمها كان ضخمًا جدًا لم أر مثله قط .

قال لى وهو ينحنى ليلتقط كيسًا ، ويداعبه بين أنامله :

ـ « ما هو انطباعك ؟ »

ـ « هذه الأكياس كبيرة جدًا تصلح أكفانًا !! »

ـ « لقد دنوت من الحقيقة .. دنوت جدًا .. والآن تعال وتحسس هذا الكيس من كثب » .

جثوت على ركبتى مثله وتحسست أحد الأكياس .. وهنا فطنت إلى أنه ليس مصنوعًا من نايلون أصلاً بل هو أقرب إلى مجموعة من الحراشف المتداخلة المتراكبة ، الرقيقة إلى حد لا يصدق ، وكانت بين القشور بعض حشرات الحلم تمرح هنا وهناك ..

ـ « أنت نشأت فى الريف ، وتعرف جيدًا هذا المشهد .. أليست عندكم ثعابين ؟ ألم تر الجلد المتخلف عن عملية انسلاخ جلدها التى تتم مرتين أو ثلاثًا فى العام ؟! »

ـ « بلى .. لكن هل يوجد ثعبان بهذا الحجم ؟ »

قال فى تفلسف كأنه يلقى محاضرة فى الجامعة :

ـ « إن البوا والأصلات قد تبلغ هذا الحجم ، وبخاصة عملاقة البوا : الأناكوندا .. إن الأصلات تعيش فى آسيا وإفريقيا بينما تعيش البوا فى أمريكا .. لكن على قدر علمى لا توجد هذه الأنواع فى مصر إلا فى بيت الزواحف بحديقة الحيوان .. »

ـ « أنت تفهم فى الثعابين إذن .. »

ـ « صرت أفهم .. لأننى لا أقرأ هذه الأيام إلا عنها ! »

ـ « ولماذا ؟ »

اتسعت عيناه رعبًا وهمس :

ـ « لأن غرفتى صارت مأوى ضخمًا للثعابين فى الفترة الأخيرة ! »

* * *

كنا واقفين على سطح البناية ، نتبادل النظرات ،

ويفكر كل منا فى السؤال الرهيب التالى .. على الأقل هناك من يشاركنى البلاء فى هذه البناية ، ولكن هل هو صادق ؟ وما سر الأفاعى التى لا تختار غير الوحيدين ناقصى الأهلية كى تسكن شققهم ؟ مد يده وفرد الجلد ليرينى ما يشبه الكمين يخرجان منه ، ومن جديد سألنى :

ـ « ما رأيك ؟ » .

كان مشهدًا فريدًا من نوعه لا أجد له تفسيرًا .. ولكننى قلت له كى لا أظل صامتًا :

ـ « هذا جلد ثعبان ذى ذراعين فيما أعتقد !! »

ابتسم فى مرارة وقال :

ـ « لقد لاحظت ما أعنيه .. طيلة الليل كنت أسمعهم يأتون إلى هنا ، ليحكوا جلودهم فى القرميد الخشن ، ولم أجرؤ قط على الخروج من غرفتى ، لكننى فى الصباح وجدت هذا .. هل تفهم ؟ لابد لهم من الانسلاخ كى ينموا ويزدادوا حجمًا !! »

- « هم ؟ من هم ؟ » .

- « كل سكان المنزل طبعًا !! » .

هنا كدت أنصرف وقد اتضح لى الأمر .. محاسب خائف ، وسكان منزل يسلخون جلودهم وثعابين .. هذا الرجل فى سبيله للجنون إن لم يكن جن منذ شهور ..

تعلق بذراعى وهتف :

- « أعرف ما تفكر فيه .. لكن الأمر ليس كما يبدو .. تعال لغرفتى كى نتكلم .. »

وتبعته إلى غرفته عبر ممر ضيق فوق السطح .. وفى الظلام سمعته يهمس من بين أسنانه :

- « صمتًا ! المهم ألا تثير حفيظتها فهى عصبية جدًا !! » .

- « هى ؟! »

- « نعم .. الأصلة الشبكية التى تقيم هنا .. يمكنك أن تطمئن نوعًا لأن هذه المخلوقات تأكل مرة كل شهر تقريبًا ، وقد أطعمت هذه منذ أسبوع !! »

* * *

وكنت أجهل كل شىء عن الثعابين ، فلم أفهم جيدًا إلا أنه يتكلم عن ثعبان ما ، ولم أفهم الحقيقة إلاحين وجدت الأسطوانة العملاقة التى يصل طولها إلى خمسة أمتار وقطر مقطعها يصل إلى قطر البرميل ، متمددة فى الظلام ، ملتفة حول نفسها ، تتحرك تلك الحركة البطيئة المنزلقة الشريرة الخاصة بالثعابين .. فلو لم أنتبه لدستها بقدمى .. كانت ممددة بالضبط جوار باب غرفته ، ومن السهل أن تقتحمها العين فلا تتوقف عندها ..

- « هـ .. هـ .. هذا ثعبان !! »

- « ظننت أن هذا واضح !! »

ـ « بهذا الحجم ؟ »

ـ « كل الأصـــلات كبيـــرة كمـــا تعلم .. مـاذا يدرسون لكم فى كلية العلوم بالضبط ؟!! »

كان يتحدث بحياد علمى أثار غيظى ، لكنى ابتلعته وسألته :

ـ « هل .. هل هو سام ؟ »

ـ « كل الأصلات تلتف حول ضحيتهـا وتخنقهـا ثم تبتلعها .. اطمئن .. لا سم هنالك ! »

ـ « وأنت تجد هذا طبيعيًا أمام عتبة غرفتك ؟ »

ـ « لا حيلة لى فى هذا .. أنا أملك غرفتى لكنـى لست مسئولاً عن الضيوف الذين يقبعون أمامها »

وأولـج مفتاحًـا فـى بـاب الغرفـة ، ودعـانى للدخول ..

رباه ! كنت أحسب أن فى شقتى ثعابين !

كـانت غرفتـه معرضًا يثير اشـتهاء أى عـالم زواحف .. ثعابين تزحف علـى الأرض .. ثعـابين تتكوم فى شكل ٨ الشهير على الأريكـة .. ثعـابين تتعلق فـى أخشـاب السقف وتتدلى فــى سـماجة لترى القادم .. ثعابين .. ثعابين .. ثعابين .. جنة الثعابين التى يحلم بها أمثال الدكتور (عزام) ..

وقفنا على الباب لا يجرؤ أحدنا على الدخول ، وقلت له مذهولاً :

ـ « هل استطعت الحياة هنا ؟ »

ـ « من قال إننى أقيم هنا ؟ لا مكان آخر لى لذا أقضى الليل فى الشوارع وعلى مقاعد المقاهى .. »

عدت أسأله فى فضول :

ـ « ولماذا لم تترك هذه البناية ! »

مط شفته السفلى فى امتعاض وقال :

ـ « أنا لست من الأثرياء ، وليس هـذا المكان

أرخص مكان يمكن العثور عليه الآن فى القاهرة فحسب ، بل ربما هو آخر مكان أيضًا .. أعتقد أنك سألت وبحثت ووصلت إلى الحقيقة ذاتها .. إننى من الريف مثلك ، لكن لا أسرة لى هناك ولا بيت ولا أرض .. معنى هذا أنه ليس أمامى إلا هنا أو السجن .. وأنا لن أدخل السجن بسبب بعض الثعابين .. إننى لا أحتمل هذا الترف ، وعلى كل حال أنا كنت فى الصاعقة يومًا ما حين كانت صحتى أفضل .. فى الصاعقة تتعلم ألا تخاف الثعابين بل ولربما .. »

- « تأكلها .. أعرف هذا كله .. »

كأن أبى يتكلم ..

وساد الصمت برهة ، ثم باغتته بسؤال آخر :

- « وكل سكان البناية يعانون المشكلة ذاتها ؟ »

- « بالعكس .. واضح أننى وأنت الوحيدان اللذان لدينا ثعابين .. ولهذا معنى خطير .. »

- « مثل ؟ »

- « مثل أن كل سكان البناية على غير ما يرام .. ألم تلحظ أن عيونهم لم تعد لها جفون ؟ »

تذكرت وجه صاحبة البيت .. إذن لم أكن مجنونًا ..

- « بلى .. بلى »

- « والعيون ذاتها انتفخت نوعًا .. ووزنهم يزداد يومًا بعد يوم .. ثم هذا الجلد المسلوخ على السطح والذى لا ينتمى لأى ثعبان حقيقى .. »

* * *

« طيلة الليل كنت أسمعهم يأتون إلى هنا ، ليحكوا جلودهم فى القرميد الخشن ، ولم أجرؤ قط على الخروج من غرفتى ، لكننى فى الصباح وجدت هذا .. »

- « ماذا ترمى إليه ؟ »

- « أرمى إلى أننا فى بناية قديمة يتحول سكانها إلى ثعابين ، لسبب لا ندريه ؟؟ »

* * *

٦ ـ أسطورة بيت الأفاعى ..

وقفنا فى الغرفة ، وجلت حولى بعينى فلم أجد ما يستحق أن أتوقف عنده .. كانت كغرفتى أو أسوأ قليلاً ، لكننى على الأقل كنت أملك مطبخًا وحمامًا وما يمكن تسميته شقة .. كل شىء مبعثر ، ومشاريع لم يستكملها قط على أوراق فى كل مكان .. هذا إذن من الأشخاص الذين يبدءون يومهم شعراء ، ثم يملون هذا عند الظهر فيتحولون إلى مخترعين .. فقط ليكتشفوا عند المساء أنهم أدباء ، وقبل النوم يضعون لأنفسهم عشرات الخطط مستحيلة التحقيق للغد ، بدءًا بإجادة اللغة الفنلندية وانتهاء بالإقلاع عن التدخين .. لكننى لاحظت مكانة متميزة لكتب السحر إياها التى بالتأكيد يشتريها من سور الأزبكية ..



ورأيت ثعبان (كوبرا) يرفع رأسه فى ذلك الوضع المنتصب الناشر الشهير ..

فقط السحر يستطيع تحويل هذا الواقع المتهالك إلى نجاح .. لن أنسى هنا طبعًا ذكر كتاب ضخم عن الزواحف وجدته مفتوحًا كأنه كان يقرأ فيه ظهرًا ..

انتقى (حسام) موضعًا بعيدًا عن الثعابين وجلس .. كدت أجلس بدورى لكننى سمعت الفحيح الغاضب فانتفضت .. ورأيت ثعبان (كوبرا) يرفع رأسه فى ذلك الوضع المنتصب الناشر الشهير ، وقد كشر عن أنيابه حيث كدت أن أجلس ! الواقع أن رأسه كان فى هذه اللحظة بالذات فى نفس مستوى رأسى !

وفى اللحظة التالية أدركت أن عويناتى ملطخة بسائل لزج ، فنزعتها غير فاهم .. تناول مضيفى عصا مكنسة وطوح بها الكائن المريع أرضًا .. ثم انتزع عويناتى من يدى وراح يمسحها بمنديل ..

ـ « معذرة .. نسيت أن أنذرك .. إنها كوبرا

(رينجهال) التى تقذف السم فى العيون ! إنها تجيد التصويب على بعد سبعة أمتار ، وفى الغالب تسبب العمى لفريستها .. لو لم تكن أنت ذا أربع عيون ـ كما يقولون ـ لآذاك هذا بشدة ! »

كدت أصاب بانهيار عصبى .. هذا كابوس .. لا يمكن إلا أن يكون كابوسًا ..

صوت الحفيف الشرير المميز لحية الجرس ـ تتتك تتتك ـ يتردد من مكان ما .. أريد الرحيل من هنا .. أريد العودة إلى قريتى .. ولم أتمالك نفسى إلا بعد ما غادرنا الغرفة الموبوءة لنقف فى الظلام البارد بالخارج ..

قلت له بعد ما تمالكت نفسى :

ـ « لماذا شقتك بالذات وبهذه الكثافة ؟ »

قال فى استمتاع بذعرى الذى فاق ذعره :

ـ « لأننا نمر بطقس بارد ، وشقتى من أكثر

الشقق دفئًا فى البناية ، لأنها تتشرب حرارة الشمس طيلة النهار .. كما أن شقتك قبلية ، وهذه الحرارة تلائم الثعابين دون شك ! » .

ـ « أى أن كل ما علينا هو البحث عن شقق أبرد ؟ »

ـ « ليس هذا فحسب .. بل لا تنس أننا ـ أنا وأنت ـ حديثا عهد بالمجىء إلى المنزل .. ولو كان شىء ما لا نفهمه يحدث ، فمن المؤكد أننا نمر بالمراحل الأولى منه ، بينما سبقنا الآخرون .. إن الأمر يتجاوز حدود المنطق ، وأنت تعرف أن لى قراءات عدة فى الـ .. فى الأمور الخارقة للطبيعة ، وأشك فى أن هناك من يمارس ما يجذب هذه المخلوقات إلى هذه البناية .. بل وأكثر من هذا يحول سكانها ببطء إلى أفاع !! والإجابة فى الطابق الأول عند صاحبة المنزل ! »

- « ولماذا صاحبة المنزل بالذات ؟ » .

ابتسم فى غموض وأشاح بوجهه عنى كى لا أرى تعبيراته ، وقال ضاغطًا على كلماته :

- « لدى من الدلائل ما يؤيد وجهة نظرى .. لن أستطيع تقديم المزيد من التفسيرات .. ولا أستطيع تفسير لماذا لا أستطيع تقديم المزيد من التفسيرات .. ثم إن المرأة منعزلة ، تتعامل مع الكون كخفاش .. وإننى أتساءل عن السبب الذى لا تسمح لأحد من أجله أن يراها .. أؤكد لك أن السر يبدأ من الشقة فى الطابق الأول .. »

- « والحل ؟ »

- « الحل هو دخول الشقة .. الآن ! »

- « معذرة أنا لم أفهمك جيدًا .. ظننت أنك تحدثت عن دخول الشقة »

- « بل هو ما قلت .. »

ومد يده فى جيب سترته وعالج شيئًا ، ثم لوح بنصل طويل يشبه نصل السيف ، كان يحمله فى الجيب ، وقال فى حماسة :

« هكذا !! تدس هذا بين شقى شيش النافذة التى تطل على الزقاق الخلفى ، ثم ترفع النصل لأعلى .. عندها ينفتح المزلاج ، ويمكننا الدخول .. »

- « بهذه البساطة ؟ كنت أحسب العجوز مصابة بجنون شك دائم ، ولا أظنها تكتفى بإغلاق باب شقتها .. »

- « لكنها بخيلة كذلك .. لهذا لم تبحث عن حل جذرى لشيش غرفة الكرار لديها .. أنا دخلت شقتها مرارًا وأعرف ما أقول .. هل تجىء معى ؟ »

ضحكت فى هستيريا .. ضحكت فى تلذذ .. ضحكت حتى دمعت عيناى بينما هو يرمقنى فى

غباء ممزوج بالغيظ .. وفى النهاية تمالكت أعصابى وقلت :

- « بالطبع لا .. هذه هى المصيبة التى أتوقعها منذ جئت لهذا المنزل .. »

بدا عليه نوع من خيبة الأمل ، وأدركت أنه خائف ، لكنه يأبى أن يعلن هذا من فرط كبرياء .. وفى الظلام هز رأسه وقال :

- « ليكن .. كنت أظنك أكثر حكمة .. إن هذا الخطر سينمو ويستمر .. لن يتوقف أبدًا ، وعندها لم لا تتساءل عن مصير سكان المنزل الأبرياء ؟ تقول لنفسك : لا بأس .. يمكننى العودة إلى قريتى أو البحث عن مسكن آخر .. ليكن .. ولكن ماذا عن الباقين الذين لا يرتابون فى شىء ولا يعلمون ما تعلمه ؟ »

لم تؤثر فىّ كلماته .. يحتاج إلى ما هو أكثر

من الحماسة كى يقنعنى باقتحام شقة عجوز ثرية وحيدة .. ولماذا ؟ لأنه يعتقد أنها سبب ما يحدث ! ها ! ثم إن الموضوع كله هراء .. مجرد أوهام من عقل أسقمته حياة الوحدة ..

وهكذا تمنيت له ليلة طيبة ونزلت فى الدرج ، لأغادر البيت عازمًا على إمضاء ليلة أخرى فى هذا الزمهرير .. ربما أجد مقهى دافئًا يظل مفتوحًا طيلة الليل ..

رباه ! لماذا لم أصدقه ولم أتبعه وقتها ؟ لماذا ؟

* * *

فى الصباح عدت لشقتى لأتناول الإفطار ، ولم يكن من شىء جديد سوى عدد من ثعابين (الرمح الحديدى) ـ كماعلمت فيما بعد ـ فى الصالة فوق أريكتى ..

خطر لى أن أصعد إلى السطح لأعرف ما تم

فى مغامرة البارحة بخصوص المحاسب إياه .. أغلقت الشقة ثم صعدت فى الدرج إلى السطح .. كالعادة كان كل شىء مشرقًا بهيجًا ، حتى لتتساءل : لماذا كنت مذعورًا البارحة ؟ حقًا إننى لأحمق ! لا يمكن أن يحدث شىء كريه تحت هذه الشمس الودود الصديقة .. مستحيل أن يحدث شىء ..

لم أجد الأصلة إياها على الباب ـ كما توقعت بالضبط ـ مما جعلنى أتفاءل خيرًا ..

لكن المحاسب لم يكن هناك .. طرقت الباب حتى كل متنى ـ كما يقولون ـ لكنه لم يكن موجودًا ..

كررت المحاولة عصرًا ومساءً دون جدوى .. ولكن ..

ألم أخبركم بنصل السكين ؟ النصل الذى كان المحاسب ينوى اقتحام العجوز به ؟ لقد وجدته

ملقى من تحت فرجة باب العجوز ، ونصفه بداخل الشقة .. كأنه خطاب دسه أحدهم لها من تحت الباب ..

وتجمد الدم فى عروقى وأنا أحاول فهم معنى هذا المشهد الرمزى الصامت البليغ .. مكان هذا النصل هو جيب المحاسب أو ـ على أسوأ الفروض ـ أى مكان آخر فى الشقة ما عدا تحت بابها .. هنا يبرز احتمالان .. إما أن النصل سقط من المحاسب وهو يغادر الشقة من الباب .. فلماذا غادرها من الباب لا من النافذة حيث جاء ؟ لأنه كان خائفًا متعجلاً .. هذا واضح .. وللسبب ذاته ترك النصل يسقط ..

وإما أنه دخل الشقة ، ثم أصابه مكروه ولم يخرج منها قط ، ولسبب ما ظل نصف النصل خارج العتبة ..

فقط النصل هنا مما يؤكد دون شك أنه حاول

تنفيذ مغامرته المخبولة هذه .. ولقد قضيت الساعات فى عذاب لم تخفف منه كل ثعابين (الآدر) التى أحاطت بى تواسينى .. هب شيئًا حدث للرجل .. أفلا أكون نذلاً تخلى عن زميل فى البشرية ؟ ألست أنا الوحيد الذى يعلم بأمر مغامرته هذه ؟ هل العجوز مجرد ضحية بريئة ؟ لا أظن .. لماذا لم تبلغ الشرطة إذن ولماذا لم تملأ الدنيا صراخًا حين وجدته ؟ معنى هذا أن لدى خلطًا ما بصدد الضحية البريئة .. ربما كانت الضحية هى من تسلل إلى شقة العجوز حاملاً نصلاً فى يده ، والآن لم يعد من دليل على مغامرته سوى هذا النصل وشهادتى ..

إن الكيمياء المعقدة فى الذهن البشرى تؤدى عملها ببطء لكن بثقة .. سرعان ما يتحول حمض الكبريتيك الحارق إلى ملح كبريتات النحاس المسالم ، وتتحول أبشع الأفكار وأكثرها إثارة لنفورك إلى

أفكار معقولة ومنطقية جدًا .. وهكذا فى النهاية قررت أن أتسلل لشقة العجوز لأرى ويطمئن قلبى .. لماذا ؟

لا أدرى متى اختمرت الفكرة فى ذهنى ، لكنى وجدت نفسى فى لحظة بعينها وقد وقفت تحت شباك العجوز المطل على الزقاق الخلفى .. فى يدى النصل ـ ذات النصل ـ وفى قلبى الشكوك ـ ذات الشكوك ـ التى اعتملت فى قلب محاسبنا الهمام قبل أن يدخل ..

« حذار يا فتى !! أنت تقتحم شقة العجوز .. كل ما كنت تخشاه تفعله الآن فى إصرار .. كأنك بطل مأساة إغريقية ممن يخبرهم العرافون بمصيرهم فى البداية ، لكنهم بإصرار لا يتزحزح يفعلون كل شىء ممكن لتحقيق هذا المصير !! »

هذا ما قاله لى ذلك الصوت الغامض فى مؤخرة رأسى .. وكان ما قلته له هو :

ـ « لكنْ الوضع جد مختلف الآن يا زميلى .. جد مختلف !! »

* * *

٧ ـ على الطريقة الروسية ..

كان الاقتحام جد سهل ، وهو ما كان يجب أن يثير ريبتى ، فلابد أن العجوز قد أحكمت تحصين نافذتها بعد مغامرة أمس .. ارتفع المزلاج لأعلى ، وانفتح الشيش دون عناء كما يفترض من كل أفعال (الإذعان) فى اللغة العربية : انفتح .. انكسر .. انشطر .. انهار ..

غبار كثير .. برص يسقط من مكان ما .. يا للقذارة !

الآن أنا واقف وحدى فى الظلام .. لا ضوء سوى ذلك الخافت جدًا القادم من الزقاق خلفى .. لا صوت سوى ذلك الطبل المدوى .. طبل ؟ بل هو صوت نبض الدم فى أذنى ..

« طالب العلوم الذى تسلل لشقة العجوز بغرض السرقة » .. « الدكتور النفسانى (كذا) يكلمنا عن سبب انتشار الجريمة بين الشباب » .. « الدكتور (كذا) أستاذ علم الجريمة يحدثنا عن الخلل الاجتماعى الذى أدى إلى ... » .. « على الطريقة الروسية فعلها ، وكما كتب (دستويفسكى) فى (الجريمة والعقاب) » ..

كنت أسمع هذه العبارات فى ذهنى ، وأنا أتحسس دربى في الغرفة المظلمة خبيثة الرائحة ، وقد أشعلت كشافًا صغيرًا يطلق شعاعًا دقيقًا .. على الأرض طبقة كثيفة من الغبار كما فى أية مقبرة فرعونية يكتشفها الأخ (كارتر) .. ربنا يستر !! لو حدث شىء فلن يصدق أحد حرفًا من كلامى عن السكان الذين يسلخون جلودهم على السطح ليلاً ..

الحق أن هذا الرعب أفادنى .. لقد جعلنى أكثر

جبنًا فى نقطة معينة ، لكن أكثر جرأة فى نقطة أخرى .. لقد كان مصدر القلق الأساسى لدى هو أن تكتشفنى العجوز .. لكنى لم أخش لحظة ما قد أراه من هول .. وكان هناك حقًا الكثير من الهول ..

ها هو ذا المطبخ وهو كالعادة خبيث الرائحة ملىء بالفوضى ، وقطع الأثاث العتيقة التى صنعها نجارو (سنوسرت) ذاته .. أدور بمصباحى فى أرجاء المكان ، وأتمنى ألا أجد العجوز واقفة أمامى ..

وفى ركن المكان وجدت عددًا من أجسام بيضاوية متراصة .. كان طول الواحد منها لايزيد على عشرة سنتيمترات ، ولها ملمس جلدى غريب .. أنا لم أر بيض الثعابين ، لكنى أعرف أنه لين جلدى لا كبيض الطيور الصلب الهش .. هذا بيض ثعبان ، وهو ما يؤكد أننى لست بعيدًا عن مجال بحثى ..

كنت جاثيًا على ركبتى ، متوازيًا فى الركن ، غارقًا فى التأمل ..

لهذا انتبهت متأخرًا إلى صوت الفحيح الغاضب ..

★ ★ ★

كانت تتحرك فى الصالة بحثًا عنى ..

من ؟ العجوز طبعًا .. لكن انعكاس النور على جسدها جعلنى أرتجف فرقًا ..

أولاً لم تكن تمشى أو تتوكأ كما يفعل الشيوخ .. شىء ما فى انسيابية حركاتها جعلها تبدو كمن يزحف ! وكان نصفها العلوى منتصبًا وفمها مفتوحًا ، واضح أنه هو مصدر الفحيح العالى !

كنت بعيدًا ، والرؤية ضعيفة عسيرة ، وقد أطفأت مصباحى ، لكن ما رأيته كان غير مريح حقًا ، وكتمت صرخة كادت تفلت منى ..

واضح أنها تبحث فى الغرف كلها عن الدخيل .. ها هى ذى تعود إلى الصالة ..

يجب أن أفكر بسرعة .. لو كانت هذه المرأة أفعى فعلى ألا أتحرك .. إنها ستشعر بالذبذبات التى أحدثها فى الأرض .. لو كانت أفعى فهى تبحث عن حرارة جسدى ، وعلى أن أجد طريقة أبرد بها ..

أو أصنع حرارة تجذبها ..

كان الموقد ذاتيًا فوثبت نحوه ، وبحثت فى الظلام عن علبة ثقاب .. ها هى ذى ! فتحت أحد المفاتيح فشممت رائحة الغاز الطبيعى الكريهة .. واضح أنها لم تكف عن الطهى .. وهو ما يعنى أنها لم تتحول إلى ثعبان كامل بعد .. حككت العود بالسطح الخشن ، وراقبت النار إذ تتوهج ، ثم زحفت مبتعدًا إلى الركن ، وانكمشت أرقب الضوء المتلألئ فى قلق ..

الفحيح يتعالى ويتعالى ..

و ....

★ ★ ★

« عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان ، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا فى الأرض الطينية .. أيتها الأرض .. ابتلعى ثانية ما خرج منك ! »

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

★ ★ ★

فى اللحظة الداخلية دلفت إلى المطبخ .. واستطعت أن أراها فى الضوء الرقراق المنبعث من الموقد ..

حقًا كانت منتصبة كالبشر .. لكن شيئًا ما ..

رباه ! شيئًا ما فى طريقة انتصابها لم يكن يمت للبشر بصلة .. الأسلوب الغريب الذى

يتراجع به صدرها ورأسها للوراء كما تفعل الكوبرا الناشرة حين تتحين الفرصة للانقضاض .. أسلوبها الغريب فى المشى .. لم أكن أرى ساقيها لأن ثوب النوم الطويل الذى ترتديه يغطيها ، لكنى لم أشعر بحركتهما أصلاً كأنما المرأة تتحرك على ذيل لا ساقين !

رباه ! هل أنا أخرف بفعل توترى ، والظلام المخيم على المكان ؟ يا له من كابوس !!!

إنها تدخل المطبخ .. تتحرك فى تؤدة نحو الموقد حيث النار التى شعرت بحرارتها كما يفعل أى ثعبان يحترم نفسه .. تطلق فحيحًا غاضبًا حين تدرك أننى لست هنا .. رأسها يتأرجح بحركة شريرة لن تصدقها ما لم ترها ..

تدور حول نفسها بحركة انسيابية رشيقة لاتصدر من عجوز ، ولامن إنسان أصلاً .. ثم ..



إنها تدخل المطبخ .. تتحرك فى تؤدة نحو الموقد حيث النار التى شعرت بحرارتها ..

هنا اتخذت قرارى .. إما الآن أو لا للأبد ..

وثبت من مكانى ملوحًا بالنصل ، وغرسته فى ظهر الوحش .. وتراجعت للوراء مرتجفًا ..

يا للهول ! استدار لى الوجه ورأيت - فى نور الموقد - الملامح التى صارت أقرب وأدنى لملامح الثعابين .. وثمة حراشف تغطى أكثر أجزائه .. وهنا فعلتَ الشىء الذى لم أسمع عنه قط ، والذى عرفت فيما بعد أنه يصدر من ثعابين البوا فى (الأنتيل) عندما تشعر بالخطر : إنها - ببساطة - تخرج الدم من عيونها وفمها ، وهو تأثير مريع يجعل المعتدى يفر هاربًا فى الغالب ..

ماذا كان تأثير هذا المشهد على ؟ هذا متروك لخيالكم طبعًا .. إذ إن الكلمات كثيرًا ما تكون قاصرة سخيفة ..

تراجعت للوراء وأطلقت صرخة رعب .. ثم

ركضت إلى باب المطبخ بينما الفحيح الغاضب يطاردنى ..

قلبى يوشك على التوقف رعبًا ، ولو فعل لما لمته لحظة ..

الصالة .. لا ! أنا لا أعرف موضع الباب .. ولو فعلت لاحتجت إلى وقت أطول من اللازم كى أجد المزلاج .. لابد من العودة إلى غرفة الكرار فالوثب من النافذة إلى الزقاق ..

تتبعنى فى كل لحظة بإصرار غريب لا يمت للبشر بصلة ..

هوب ! النافذة .. هوب ! الوثبة فى الظلام .. هوب ! سقطت على ذراعى وعلى كفى المفتوحة بقوة غير عادية ، فشعرت بألم ممض يمزق معصمى .. فيما بعد سأعرف أن هذا هو

الكسر المميز لهذا النوع من السقطات ، وستتخذ يدى منظر (شوكة العشاء) المحبب للنفس ..

كل هذا سيحدث وسأستمتع به فيما بعد ، أما الآن فالوقت وقت الفرار .. الفرار ولا شىء سواه ..

* * *

٨ ـ لقد عاد حسام ..

ولم أعد للمنزل ليلتها .. قصدت أحد المستشفيات كى أعنى بذراعى ، ثم عرجت بذراع ملفوفة بالجبس على دار صديق بعيد لى كى أمضى ليلتى ، لأن المبيت على مقاعد المقاهى لم يعد هواية محببة لى .. وبالطبع ظلت مشاهد الليلة تتردد فى ذهنى كالأصداء ..

على أننى ظللت أقول لنفسى : لقد انتهى الكابوس .. لقد أنقذت الجميع ..

وفى الصباح عدت للمنزل ، متوقعًا أن أجد الكون وقد انقلب رأسًا على عقب .. توقعت أن أجد عربات البوكس تسد الطريق ، وأن أرى مئات من رجال القوات الخاصة بثيابهم السود

الرهيبة يصوبون مدافعهم نحوى .. توقعت أن أرى محكمة وقاضيًا مهيبًا ومشنقة ، كل هذا عند مدخل الحارة .. لكن لم يحدث شىء .. إن انعزال العجوز عن الحياة العامة ، جعلها من العجائز اللواتى لا يكتشف موتهن دون رائحة ..

كان عقلى مرهقًا بالتفكير فى الطريقة التى سينكشف بها أمرى .. بالطبع سيعرف رجال الشرطة كل شىء ، فلا أحد يستطيع خداعهم .. ولى أن أتصور كم مليون بصمة تركت ، وكم مليون بطاقة شخصية سقطت من جيبى ، وكم مليون ورقة تحمل اسمى هناك .. إن المسألة لن تتجاوز بضع ساعات لكنى لشدة الغرابة راغب حقًا فى انتهاء الأمر .. ربما لا يكون سجن القلعة زاخرًا بالأفاعى كبيتى هذا ..

وعلى الدرج قابلت (هيام) وأنا أفتح باب شقتى .. يجب أن أقول هنا إننى كنت أتكلم وأتصرف

بالضبط كما كان (راسكولنكوف) قاتل العجوز فى (الجريمة والعقاب) رائعة (دستويفسكى) .. لا تنسوا أن تقرءوها إن لم تكونوا فعلتم ..

كانت عيناها منتفختين وبلا أهداب كالعادة ، وازدادت ضخامة ، لكن وجهها أشرق حين رأتنى ، وقالت :

ـ « أين أنت ؟ حسبناك مت لكننا لم نشم الرائحة ! »

مزحة لكنها فى الصميم ! لن تشمى رائحتى بالذات يا صغيرة ، لكنك ستشمين قريبًا جدًا روائح أخرى .. قلت لها :

ـ « كنت عند بعض أصدقائى .. كيف حالك ؟ »

ـ « بخير » ـ ثم اتجهت عيناها إلى ذراعى المضمدة فى الجبس ـ « .. سلامة ذراعك ! »

ـ « سقطة من الحافلة .. دعك من هذا .. هل أنت بخير حقًا ؟ »

ـ « لم أكن قط أفضل من هذا .. فيما عدا أنك لم تعد تبدى ميلاً نحوى .. إن الحب يبرد ككل جسم ساخن » .

ـ « هذه هى النظرية الميكانيكية الحرارية .. لكنها لا تنطبق على » .

كاذبًا كنت .. فى الحقيقة كان حبى يبرد إن لم يكن قد تحول إلى جليد .. كنت أعلم أنها بدأت تتحول إلى أفعى .. لو فكرت أمس أنى سأفكر فى شىء كهذا اليوم ، لاتجهت بنفسى إلى مستشفى الأمراض العقلية ، أما اليوم وبعد مواجهة أمس التى لم تكن سارة قط ، فقد صرت على استعداد لقبول أشياء كثيرة .. هل تم هذا التحول أم لم يتم ؟ هل سيتوقف بموت العجوز أم لا ؟ كلها أسئلة

بلا جواب .. لكنى أعرف شيئًا واحدًا .. أنا لم أعد أطيق هذه الفتاة بل وأخافها حقًا ..

هزت رأسها كأنما تقول : هذا هو حال الرجال .. ثم همست :

- « الآن ادخل شقتك لأننى أريد الحديث مع السيدة (رتيبة) .. فلا يجب أن ترانا معًا ! » .

كانت (هيام) تبدأ يومها دومًا بالسؤال عن (رتيبة) ، وما كان هذا حبًا لها قدر ما هو مداهنة لها اتقاء لسانها السليط الذى ينثر الأقاويل كما ينثر الكلب المبتل ماء استحمامه .. والسيدة (رتيبة) - كما لابد أنك تعلم - هى العجوز التى استقر نصلى فى ضلوعها .. معنى هذا أن النهاية قريبة .. وفتحت بابى وابتلعت ريقى ..

* * *

« طالب العلوم الذى تسلل لشقة العجوز بغرض السرقة » .. « الدكتور النفسانى (كذا)

يكلمنا عن سبب انتشار الجريمة بين الشباب » .. « الدكتور (كذا) أستاذ علم الجريمة يحدثنا عن الخلل الاجتماعى الذى أدى إلى .. » .. » على الطريقة الروسية فعلها ، وكما كتب (دستويفسكى) فى (الجريمة والعقاب) » ..

* * *

لماذا لم أترك الدار ؟ لأن هذا بمثابة اعتراف كامل .. على أن أظل حيث أنا ، وأبدى كثيرًا من الدهشة والذعر حين يجىء رجال الشرطة .. لن يكون الأمر صعبًا لأن من سيفتح باب العجوز سيجد مشهدًا يضىء كوابيسه للأبد .. سيجدون كائنًا هو مزيج من الإنسان والأفعى .. سيفهمون لماذا فعلت ما فعلت ..

والاقتحام ؟

ماذا عن الاقتحام ؟ ليس اقتحام المنازل مسموحًا به حتى لو كانت منازل مسوخ ..

لسوف يحاصروننى بالأسئلة ، ولسوف يرغموننى على تكرار القصة ألف مرة حتى أرتكب خطأ ما ، وعندها .. وأنا أعرف نفسى .. لا تنقصنى سوى لافتة على جبينى تقول : أنا نادم يا سادة .. لقد فعلتها !

كنت واقفًا وراء الباب غارقًا فى هذه الخواطر السوداء ، حين سمعت الطرقات وصوت (هيام) الرقيق يتساءل :

ـ « صباح الخير يا خالة (رتيبه) .. أمى تسألك إن كنت تريدين شيئًا من السوق فى طريق عودتى ؟ »

ثم الصوت الأجش المميز يقول من وراء الباب :

ـ « عشت لى يا بنيتى .. الحقيقة هى أننى كنت بحاجة إلى خبز .. خمسة أرغفة .. وربما .. » احتشدت قطرات العرق البارد على جبينى ، ومادت الأرض تحت قدمى ..

الاحتمالات : أنا قد صرت مخرفًا وانضممت بلا جهد إلى عالم المجانين الساحر .. أو أن العجوز لم تمت وكانت تتحامل على نفسها وهى تكلم (هيام) .. لماذا ؟ لا أدرى ..

النتائج : لست متضايقًا جدًا لهذه النتيجة ، فأنا لست قاتلاً ولم أصر .. لكن ميعاد الفرار قد جاء دون شك .. سأعود لقريتى وأصارح أبى بأننى لم أعد أتحمل الغربة .. ربما أجد شقة أخرى مريحة آمنة يملؤها البق ـ فقط ـ بعد انتهاء الموسم ..

هرعت كالمجانين .. أحزم حقائبى ، متحاشيًا الثعابين المتناثرة هنا وهناك ، حين سمعت طرقات على باب الشقة ..

متوجسًا دنوت من الباب وسألت (من ؟) بصوت كالفحيح ..

ـ « إنه أنا .. (حسام) ! جارك ! »

★ ★ ★

فتحت الباب غير مصدق .. كان هناك بشحمه ولحمه ، ولم يختلف كثيرًا ولم يبد لى كأفعى ..

صحت فى ذهول وأنا أوصد الباب :

ـ « أنت لم تمت ؟ ولم تبتلعك العجوز ؟ » .

ضحك فى إنهاك وقال :

ـ « وهل ينبغى أن يحدث هذا ؟ » .

ـ « حسبت هذا تفسير اختفائك .. »

استند إلى الباب ، وراح يترنح بعض الوقت كأنما يحب هذا ، وفى النهاية قال اعترافه الرهيب :

ـ « كنت هاربًا .. لقد طعنت العجوز .. اضطررت لهذا ، لكنى لم أستطع تحمل نتائج تصرفى .. وعدت متوقعًا كارثة .. سمعتها تتكلم من وراء الباب مع جارتنا الشابة .. إن الأفاعى لا تموت بسهولة كما أظن .. »

بدت لى قصته مألوفة نوعًا ولا أدرى السبب .. يبدو أن كل من بالبيت صار يقضى وقت فراغه فى طعن العجوز والفرار .. وهى لعمرى هواية غريبة بعض الشىء .. قلت له :

ـ « نفس ما حدث لى ولا أجد له تفسيرًا » .

ثم تذكرت ما كان فى ليلتى ، فقلت له وأنا أرتجف فرقًا :

ـ « هل رأيت ما رأيته أنا ؟ إن المرأة تتحول تدريجيًا إلى .. »

اتسعت عيناه من وراء زجاج عويناته السميك وقال مقاطعًا :

ـ « إلى بوا عملاقة .. أعرف هذا .. كنت أتوقعه لكن هذا يختلف عن رؤيته ، وأعتقد أن من طعن المرأة لم يكن أنا بل هلعى المجنون .. إن المشهد يوصلك لا شعوريًا إلى حالة الجنون غير المسئول .. »

ثم نظر إلى ذراعى المضمدة ، وتساءل :

- « وذراعك .. هل لدغه ثعب .. »

- « سقطة من النافذة فى أثناء فرار مسرع كأى لص .. »

وساد صمت طويل قطعته بأن تساءلت :

- « ما الذى جعل نصل السكين خلف باب الشقة ؟ المفترض أنه سقط منك فى مكان ما بالداخل .. »

هز رأسه بمعنى أن هذه ترهات وقال :

- « لقد سقط منى بالداخل فعلاً .. لابد أن المرأة هى من وضعه هناك لتشد انتباهك .. »

- « وقد نجحت .. »

وجلسنا نفكر معًا .. لو كان صادقًا فمعنى هذا أن لدينا لغزًا مخيفًا ينتظر فى الشقة السفلى ،

وهذا اللغز قد تعرض لمحاولتى قتل فى يوم واحد ، وبرغم هذا لم يمت ، ولم يحدث ضوضاء .. وهذا مخيف فى حد ذاته .. لقد صار الأمر يتمتع بلا منطقية الكوابيس ، وأنا أعرف شيئًا واحدًا هو أننى لن أنتظر أكثر ..

كانت العاشرة صباحًا ، وأطياف الليل لا تبدو بهذا الرعب ، لذا قررت أن أمضى ساعة أخرى مع (حسام) ، قبل أن أتجه إلى موقف (أحمد حلمى) - وقتها - لأستقل أول سيارة أجرة إلى بلدتى ..

سيكون أبى فخورًا بى حقًا حين يعرف أننى هجرت الدراسة بسبب بعض ثعابين البوا العاصرة ..

* * *

٩ ـ حكايات عن الثعابين ..

لم يكن (حسام) إنسانا منفرًا إلى هذا الحد ..

لا أدرى هل هو لطيف فعلاً أم أننى كنت بحاجة إلى أية صحبة بشرية غير الثعابين .. ربما هو ذلك الدفء البشرى الذى ما إن تدنو منه حتى تألفه .. وربما تشابه الظروف ..

وكانت قصة حياته هى البساطة ذاتها : لقد فشل فى كل شىء جربه فى حياته ، ولم يكن معه من المال فى أى وقت ما يسمح له بأكثر من كوب شاى على المقهى ، وربما شطيرة فول من (زيزو) ..

وكان مثلى مشحونًا بالأحلام والطموحات عسيرة التحقيق ، لهذا جرب كل شىء ، وفى نهاية كل

يوم يقرر أن النجاح الحقيقى سيكون غدًا ..

* * *

هذا إذن من الأشخاص الذين يبدعون يومهم شعراء ، ثم يملون هذا عند الظهر فيتحولون إلى مخترعين .. فقط ليكتشفوا عند المساء أنهم أدباء ، وقبل النوم يضعون لأنفسهم عشرات الخطط مستحيلة التحقيق للغد ، بدءًا بإجادة اللغة الفنلندية وانتهاء بالإقلاع عن التدخين ..

المشكلة هى أنه من المبتلين بجذوة الفنون ، لكنه يحترق بها فقط ولا يملكها .. إنه يعيش ويفعل ويقول كل ما يفعله ويقوله أى فنان بوهيمى ، لكنه لا يملك أية موهبة ، وفى هذه النقطة أنا أفضل منه .. أنا أعرف حدودى جيدًا ولا أتجاوزها .. وأعرف أنّ أول دربى هو مدرس علوم فى مدرسة إعدادية وآخره ـ لو تفوقت فى الدراسة ـ هو أستاذ علم الحيوان فى الكلية .. لن

أحيد عن هذا الدرب سواء بلغت نهايته أو ظللت فى أوله ..

أعددت له بعض الشاى ثم سألته :

ـ « ما زلت لا أفهم لماذا بدأ شكك بالعجوز بالذات ؟ »

قال وهو يرشف أول رشفة فى نهم :

ـ « شففف .. لا تنس أننى أقرأ الكثير من كتب السحر ، وأعرف جيدًا سمات من يمارسونه .. ربما نختلف حول حقيقة السحر ، لكن الحقيقة المؤكدة هى أن ملامح ممارسيه وأساليب حياتهم تتغير ، وعلى سبيل المثال يقال إن هناك شامات معينة تظهر على جبين من يتعاملون مع الجان .. »

جلست جواره ورحت أتأمل المكان .. كان ثعبان صغير وديع يرمقنا من فوق خزانة الكتب التى تبعد بضعة أمتار ، وخطر لى أنه من الغريب أننى لم ألدغ بعد وسط كل هذا الزحام ..

سألته :

ـ « إن أية امرأة عجوز غريبة الأطوار يمكن أن يتهمها الناس بأنها ساحرة ، حتى لو كانت بريئة .. ليس هذا دليلا على شىء .. ألا ترى هذا ؟ » .

بدأ الغيظ على وجهه وقال :

ـ « وتقول إنك رأيت الأهوال فى شقتها أمس ؟ إن العجائز البريئات لا يزحفن فى شققهن ليلاً ويبضن بيض ثعابين .. »

ـ « لم أنكر أنها تتحول أو تحولت .. لكننى أشك فى كونها هى سبب شقائها » .

قال مفكرًا :

ـ « ششششففف ! لقد وجدت لدى المرأة كتب سحر حقيقية .. كتب سحر عتيقة يبدو أنها شىء تم توارثه من أجيال ، كما وجدت هذه الأشياء » .

ومد يده إلى جيبه فعالج شيئًا ما حتى أخرجه .. تراجعت للوراء متوقعًا كارثة لكن الأمر لم يكن كهذا .. مجرد قطعة من بردية فرعونية قديمة ممزقة يبدو أنها أصلية .. وعليها ذات الرسوم والخراطيش المألوفة ..

صحت فى رعب :

ـ هذه البردية ثروة حقيقية .. تبًا .. إنك الآن تقحمنا فى قضية سرقة آثار » .

ـ « كف عن السخف .. أنا لم أسرقها من مقبرة فى الأقصر ، لكن من شقة العجوز ، وكنت أحاول فهم ما تفكر فيه هذه المرأة وما تعيش من أجله .. أنا لا أفهم حرفًا من الموجود هنا لكنى وجدت عددًا هائلاً من رسوم الثعابين .. يبدو أن هذه البردية تلخص علم الثعابين عند الفراعنة .. كما أننى وجدت رمزًا معينًا يبدو

مألوفًا .. إن هذا الاسم الموضوع فيما يشبه الخرطوشة مألوف لدى بنقوشه .. هل ترى هذا ؟ »

وضع الكوب الفارغ جانبًا وراح يلوك بقايا الشاى بين أسنانه (وهى عادة قذرة لا أطيقها) وامتد إصبعه ـ متسخ الظفر ـ يشير إلى أحد الرموز فى البردية ، وقال :

ـ « إنه يدعى (واجيت) .. »

ـ « (واجت) ؟ »

هز رأسه مصححًا نطقى وكأنه (سيبويه) أو أحد أساتذة القراءات :

ـ « ليس بالجيم القاهرية بل الجيم المعطشة الفصحى .. لابد من نطق جزء من حرف الدال قبل الجيم .. وا .. دجت .. وا .. دجت »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

نظر إلى ساعته ولم يرد على السؤال ، وقال :

ـ « الآن لا يوجد واحد من الطلبة إياهم فى غرفته .. كلهم فى المعهد الآن .. إن مفتاحهم معى .. ».

ـ « ولماذا يعطونك مفتاح شقتهم ؟ »

ـ « لم يفعلوا .. أنا سرقته إذ سقط من أحدهم على الدرج منذ أسبوع ، وهم مهملون لم يحفلوا باستبدال قفل الباب على أساس أن المفتاح ضاع بعيدًا .. حيث لا يحفل به أحد .. »

ـ « وهل أنت معتاد على سرقة أى مفتاح تجده ؟ »

ـ « فقط مع سكان هذه البناية المشئومة .. أنا بحاجة إلى حرية الحركة .. حرية الدخول إلى كل مكان .. أريد أن أعرف .. »

* * *

وقفنا على باب شقة الطلاب ونظرت حولى مذعورًا متوقعًا أن تهوى الصواعق لتحرقنا .. اقتحام بيوت فى غيبة أصحابها .. هذا ما كان ينقصنى لتكتمل الصورة .. ورحت أرمق هذا المجنون يعالج القفل بمفتاحه حتى انفتح الباب ، وكان من الأبواب غير ذات (الكالون) ولكنه يعتمد تمامًا على قفل و (رزة) .. لنفرض جدلاً أن أحد هؤلاء الطلاب كان مصابًا بإسهال وأنه عاد من معهده فى هذا الوقت غير المبكر كى ..

وفى الداخل كانت الشقة عارية من الأثاث تقريبًا ، وإن لم تكن عارية من الأتربة ..

فى ثقة ـ كأنه ابن الدار ـ مشى المحاسب فى الصالة قاصدًا أول حجرة على اليمين ، وفتح الباب وألقى نظرة بينما أنا وراءه أقول كلمات مختلطة من طراز (فلنرحل ـ لا تفعل ـ يكفى هذا) .. لم يفتنى أن ألاحظ أن الشقة كانت نظيفة من الثعابين تمامًا

وهو شيء غريب .. في شقتي يمكن أن تراها يمكن أن تراها على الباب وفي الصالة الضيقة ، ووراء كل قطعة أثاث كأن شقتي إحدى غابات الأمازون ..

دخل الغرفة ولم يكن فيها الكثير .. يوجد جهاز كاسيت عملاق مما يعشقه أبناء القرية ، وبعض الكتب الدراسية الملقاة في إهمال وكراهية ، وعلى الحائط صورة لـ (فريد الأطرش) يمسك بالعود وعيناه تحلمان بالربيع الذي عاد والفجر هلت أنواره ..

راح (حسام) يقلب بين الكتب ، ثم رفع حشية الفراش وألقى نظرة ، ودون كلمة أخرى غادر الغرفة قاصدًا واحدة أخرى .. من جديد تبعته فرأيته يقلب الكتب ويفتح خزانة عتيقة ليلقي نظرة ، ثم هز رأسه وابتعد ليفتش الحمام ..

انتظرته في هلع وأنا ألوم نفسي على تهوري .. بعد ثوان عاد وهو يحمل ما يشبه كيسًا فارغًا من البلاستيك ، وقال وهو يرفعه لأراه بوضوح :

ـ « جلد ثعبان .. إن الجدار خشن بالداخل يصلح لمهمة كهذه ! »

صحت في رعب :

ـ « هل تعني أنهم يتحولون إلى ثعابين ، وبرغم هذا يذهبون إلى معهدهم للدراسة ؟ »

دخل الحمام ليعيد الجلد وقال :

ـ « وماذا في ذلك ؟ إن التحول بطيء ويمكن لأقوى الناس ملاحظة أن يحسب هذه التغيرات خداع نظر .. أو مجرد تبدل دوري في الشكل .. إن لنا أيامًا نكون أقبح فيها أو أكثر تورمًا .. كلنا كذلك بلا استثناء .. »

* * *



وانتظرته فى هلع وأنا ألوم نفسى علي تهورى ..
بعد ثوان عاد وهو يحمل ما يشبه كيسا فارغا من البلاستيك ..

جارتى الحسناء التى لم تبد حسناء فى هذا الوقت بعينيها المنتفختين اللتين لم تظفرا بنوم كاف .. لعلها الثعابين ؟! ولاحظت أنها ازدادت بدانة فى الآونة الأخيرة .. تبًّا ! أنا لا أطيق البدانة ..

سألته ونحن نتجه إلى باب الشقة :

ـ « هل لى أن أفهم ما كنت تقصده من هذه المغامرة ! »

أغلق الباب وأعاد القفل إلى مكانه وقال لاهثا :

ـ « الدليل .. الدليل على أنه لا توجد عندهم ثعابين ولا برديات ولا كتب سحر .. من جديد أقول إن الشقة الوحيدة التى تحوى كتب سحر وبرديات هى شقة العجوز .. نحن لم ندخل شقة الموظف بعد ، ولن نستطيع هذا ، لكنى أستطيع الجزم بأنها لا تحوى ثعابين ولا كتبًا »

وابتعدنا عن الشقة حتى صرنا فى دائرة الأمان التى تقع خارج دائرة الشبهات ، وأردف :

ـ « هذه البناية تحوى ثلاثة أنواع من البشر : الأبرياء الذين لم يتضرروا ويدعوا بعد وهؤلاء تعج شققهم بالثعابين .. »

ـ « مثلى أنا وأنت .. »

ـ « والأبرياء الذين تضرروا ويدعوا يتحولون ، وهؤلاء تخلو شققهم من أى شىء .. ثم الفاعل الأصلى وتوجد فى شقته كتب سحر مريبة وبرديات .. أنا لا أعرف متى ننتقل من القائمة الأولى إلى الثانية ، وهل ننتقل إلى الثالثة أم لا .. لكننى أعرف أن موعدنا آت لاريب ، وأن علينا أن نفعل شيئًا »

قلت له فى نفاد صبر :

ـ « الشىء الوحيد الممكن هو الرحيل .. أنا سأكون فى قريتى بعد ساعات .. »

نظر لى مفكرًا ثم قال :

ـ « لن تستطيع .. وسأقول لك السبب .. »

★ ★ ★

١٠ - واجيت وأشياء أخرى ..

قال (حسام) فى هدوء ، ونحن جالسان فى مقهى قريب :

- « نحن لا نعرف ما حدث للمرأة .. هل حقًا هى منيعة إلى درجة أن تتحمل طعناتنا معًا ولاتموت ؟ حتى ثعابين البوا تموت بالطعن .. كل شىء حى يموت بالطعن .. وما أخشاه أن نكون قد نجحنا دون أن نعرف .. أن تكون العجوز الآن فى مرحلة الاحتضار البطىء وتتحامل .. والآن لو ماتت المرأة ووجدوها غدًا مطعونة ، ولو وجد رجال الشرطة أنك غادرت شقتك اليوم فى ظروف مجهولة ، واختفيت .. عندها ماذا تستنتج أنت لو كنت معاون المباحث ؟ »

ودنا بوجهه المنفر من وجهى وكرر السؤال :

- « هه ؟ ماذا تستنتج لو كنت معاون المباحث ؟ »

فكرت فى كلامه وبدا لى منطقه لا بأس به :

- « سيكون هذا دليلاً دامغًا ضدى .. »

- « بالضبط .. وعندها سيجدون بصماتك فى كل مكان فى شقتها .. والقصة بعد هذا سهلة .. الطالب الفاشل الذى قتل العجوز لسرقتها .. ربما بمساعدتى أيضًا » .

رحت أحك رأسى عاجزًا عن تصديق أننى حقًا لا أستطيع الفرار من هنا .. قلت معترضًا :

- « وأى فارق سيحدث لو ماتت المرأة وأنا مازلت هنا ؟ إن الدليل واحد فى الحالتين .. »

قال باسمًا :

- « لا .. لا .. سنعرف قبل رجال الشرطة ، ولسوف نتسلل إلى الشقة ونزيل آثارنا تمامًا ، ثم تأتى الشرطة لتجدنا بريئين تمامًا لم نفر ؟ ببساطة لأننا لم نفعل ما يستوجب الفرار .. »

- « تريد القول إن علىّ البقاء فترة أخرى ؟ »

- « نعم .. ربما لمدة يومين على الأكثر .. لو ظلت العجوز ترد على قرعات الباب ، فمن المؤكد أنها نجت من هجومنا ويمكننا الفرار وقتها .. فقط بعد هذا وليس قبله .. »

رحت أرمق وجهه عاجزًا عن قول شىء مفيد ..

* * *

كان هذا هو عصر اليوم ذاته ..

صعدنا فى الدرج ، وعلى السطح كانت الشمس تفترش الأرضية ، باعثة انعكاسات رقراقة على جلود الأفاعى إياها .. وسألته عن البوا التى كانت

تسد الطريق إلى غرفته ، فمط شفته السفلى بمعنى أنه لا يعرف ..

وفى غرفته استطاع أن يبعد بعض الثعابين ركلاً حتى يجد مكانًا نجلس فيه ، ومن الغريب أننى بعد كل ما رأيت لم أعد أهاب هذه الكائنات إلى هذا الحد .. الأفظع من الثعابين هم البشر الذين يتحولون إلى ثعابين ..

وتأملت الثعابين التى أزاحها بقدمه .. ثعبان الجرس .. ثعبان المرجان .. كوبرا .. أنواع فى منتهى الخطورة .. ما هذا الكابوس الذى نحيا وننام فيه ؟

سألته وقد قررت أن أتعلم شيئًا أو شيئين .. إننى طالب كلية العلوم ، لكنه هو الخبير المدقق :

- « كيف يقتل سم الثعبان ؟ »

قال لى وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « هذا يختلف حسب (موديل) الثعبان .. الثعابين الأصلية Elapids يدمر سمها الجهاز العصبى ، ويؤدى لشلل الحجاب الحاجز وعضلات التنفس فالاختناق .. الأفاعى Vipers يقتل سمها عن طريق تدمير الأوعية الدموية وتهشيم الكريات الحمراء مما يؤدى لفشل الكلى والصدمة .. الثعابين البحرية سمها يدمر العضلات .. لا أتحدث هنا طبعًا عن الأصلات والبوا التى تقتل فرائسها عن طريق العصر فالابتلاع ! »

ـ « ما شاء اللّه ! »

قال لى فى إلحاح :

ـ « الموضوع هو أن شرور هذا البيت تبدأ كلها من شقة العجوز ، وعلينا أن نقتحمها ثانية .. »

ـ « أما هذا فلا .. لقد اكتفيت من المغامرات والتسلل ، ولسوف أسكن فى قريتى فى حضن أمى بعد يومين أو أقل !! »

الغريب أن موقف (أحمد حلمى) صار بالنسبة لى حلمًا قصيًا جميلاً .. صار كوبًا من الماء البارد لنفس صدية فى حر أغسطس .. صار كـ (ديزنى لاند) .. لا .. لا .. أكثر من هذا .. ربما أصفه بـ (موقف الميعاد) .. (جودو) الذى تنتظره فى شوق ولايجىء أبدًا ، على رأى الكاتب العبثى (بيكيت) ..

عاد يحكى لى منطقه الذى يدعونى إلى الانتظار .. فى النهاية ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

ـ « لقد قرأنا على البردية لفظة (واجيت) .. هل تذكر هذا ؟ »

ـ « أنا لم أقرأ شيئًا .. أنت قلت »

حك رأسه مفكرًا ثم قرر أن يحكى لى المزيد مما يعرف :

دعنى أحك لك قصة مثيرة تعود إلى زمن سحيق .. أنت تعرف مدى اهتمام الفراعنة

بالأفاعى وخشيتهم منها .. إن عاطفة الفراعنة نحو تلك الزواحف معقدة جدًا ، هى مزيج من التقديس والخوف والحب .. كان هناك كهنة ثعابين متخصصون .. وقد لاحظ الفراعنة أنه يمكنهم تقسيم الثعابين إلى أنواع : ثعابين طيبة كريمة المنبت ؛ مثل الكوبرا (رع – رننوتت) سيدة مخازن الحبوب ، وثعابين قوية شرسة لايمكن مواجهتها مثل الثعبان أبو بيس الذى هاجم سفينة (رع) فى أساطير الفراعنة .. وفى صخور طيبة كانت الأفعى (مرسجر) التى أحبها الأهالى .. بل إن الفراعنة عبروا عن مفهوم القدر ذاته – كما نفهمه نحن – فى صورة أفعى .. لكن أقوى الأفاعى طرًا كانت هى (واجيت) ملكة مصر السفلى ،والتى نسجت حولها أساطير لا تنتهى ، منها أنها تحرس كتاب السحر الأعظم .. كانت هذه عقيدة توارثها الكهان .. ولسبب ما لم تنقرض ،

أو انقرضت لكن هناك من حاول إحياءها من جديد .. »

وابتسم وأضاف :

– « لابد من أن هذا يقرع جرسًا ما لديك .. نحن فى بناية تعج بالثعابين ويتحول سكانها إلى ثعابين ، ثم نجد لدى العجوز التى تعيش وحيدة بردية تتحدث عن (واجيت) بالذات .. فما معنى هذا ؟

– « تريد القول إن العجوز فى الحقيقة من كاهنات (واجيت) ؟ يبدو لى هذا غريبًا » .

– « لم لا ؟ إنها تمضى الوقت عاطلة وحيدة تقرأ كتب السحر .. من الطبيعى أن يختل توازنها العقلى .. »

كتمت التعليق الطبيعى فى نفسى ومعه كتمت ابتسامة .. أعرف واحدًا آخر عاطلاً وحيدًا يقرأ

كتب السحر ، ومن الواضح أنه بدوره مختل العقل .. غريب أمر الإنسان حقًا .. إن عيوبنا ككشافات سيارة نركبها .. لا نراها نحن أبدًا بينما هى تعمى عيون الآخرين الذين يقابلوننا .. وبالمثل نحن نرى كشافاتهم - أو عيوبهم - بوضوح تام قد يدفعنا إلى مطالبتهم بتخفيضها قليلاً ..

وهنا - لا أدرى السبب - راحت لقطات خاطفة كـ (فلاش باك) السينما تضىء فى ذهنى ..

* * *

كان الاقتحام جد سهل ، وهو ما كان يجب أن يثير ريبتى فلابد أن العجوز قد أحكمت تحصين نافذتها بعد مغامرة أمس ..

* * *

غبار كثير .. برص يسقط من مكان ما .. يا للقذارة !

* * *

على الأرض طبقة كثيفة من الغبار كما فى أية مقبرة فرعونية يكتشفها الأخ (كارتر) ..

* * *

قال (حسام) مواصلاً كلامه ، فهو بالطبع لم يسمع ما دار فى رأسى :

- « بل الحق هو ما أقول .. والهدف هو إنشاء مجتمع من الثعابين يبدأ من هنا .. من هذه البناية بالذات .. لقد تحول أكثر سكان البناية بالفعل ، بالإضافة إلى ما نكابده أنا وأنت من أفاع فى بيتينا .. إن الأمر جلى واضح فلا تتذاك علىّ ، ولا تلعب دور رجل العقل المثقف الذى لا تهزه الترهات » .

هكذا إذن ؟ لقد بدأت أفهم .. قلت له وأنا أنهض وأتراجع للوراء خطوتين :

- « نظرية متكاملة لا بأس بها ولى إضافة أخرى عليها .. »

ـ « مثل ؟ »

ـ « مثل كونك أنت مدبر كل هذا لا العجوز ، التى هى ضحية أخرى !! »

* * *

تراجع للوراء وصاح فى لهجة من أهين :

ـ « أى سخف !! »

قلت وأنا أتجه للباب مكورًا قبضتى السليمة تأهبًا للفتك به :

ـ « بل هذا منطقى للغاية .. أنت الوحيد الذى لم تبد عليه علامات التحول .. تعيش مع كل هذه الثعابين السامة وبرغم هذا لا تلدغك ، بل وتبعدها بقدمك دون أن تقلق وكأنها تخشاك » .

ـ « وماذا فى ذلك ؟ إن نفس الكلام ينطبق عليك على ما أظن .. »

ـ « لكنْ ثعابينك أخطر بمراحل من ثعابينى .. كيف يعقل أن تعيش كل هذه الفترة مع الكوبرا التى تبصق سمها فى العيون ، وتظل سالمًا ؟ حين تذكرت منظر الغرفة فى شقة العجوز أدركت بوضوح تام أنك كاذب وأنك لم تدخلها قط ، وأن نصل السيف تحت الباب كان مجرّد حيلة لجذبى بدورى .. الغرفة كانت حين دخلت أنا مليئة بالغبار كقبر (سنوسرت الأول) .. لا آثار أقدام على الإطلاق .. كان هناك برص على مصراع النافذة وأطنان من التربة وعناكب .. هذه أشياء لا يمكن أن تظل هناك بينما دخلت أنت قبلى فى اليوم ذاته .. كان المصراع لينا سهلا ولا يتفق مع محاولة اقتحام طازجة .. كنت تكذب طبعًا .. أنت لم تدخل الشقة ولم تطعن العجوز .. وأنت الوحيد الذى له علاقة بكتب السحر ها هنا .. لا أدرى إن كانت قصتك عن (واجيت) هذه صحيحة ، لكنى

أعرف أن البردية خاصة بك ، وأن العجوز لم تكن تملك كتب سحر .. ترى ما هى ألعوبتك ؟ »

ـ « هذه !! »

* * *

١١ ـ أنت عرفت !

ولم أتوقع السرعة التى كال بها لكمة إلى أنفى ، حتى إننى سقطت للوراء بعدما اندفعت مترًا .. كنت أتوقع نوعًا من الحوار المراوغ .. نوعًا من الإنكار .. نوعًا من التلاعب بى .. ليس بهذه السرعة ..

وحين فهمت ما يحدث ، كان الدم يغمر أسفل وجهى .. وشعرت كأن أنفى قد تحركت لأعلى لتمزق نسيج المخ .. هل هذا ممكن ؟ آى ! فى اللحظة التالية هوى شىء ثقيل على رأسى ..

* * *

وحين فتحت عينى ، كنت راقدًا على الأرض فى شقة ليست شقتى ، لكنها مألوفة لى بظلامها وقذارتها ورائحتها العطنة .. وكان (حسام) ـ لو

كان هذا اسمه حقًا ـ ينتهى من عملية جرّى من ساقى على الأرض ..

كان يلهث من فرط المجهود ـ فأنا أضخم منه جسدًا ـ لكنه سعيد راض ..

ـ « هل أفقت ؟ عظيم ! اغفر لى خشونتى ، فأنت قد صممت على أن تظل عنيدًا للنهاية ، ولم تعد الحيل قادرة على جعلك تجىء هنا ! »

تحسست رأسى ، وبوهن تساءلت :

ـ « أين أنا ؟ »

ـ « فى شقة صاحبة المنزل طبعًا .. ألم تزرها أمس ؟ »

وتنهد وأمسك بظهره متألمًا :

ـ « آى ! يا للمجهود ! »

ـ « لماذا لم تقتلنى أصلاً ؟ »

ـ « كنت أتمنى هذا للأسف .. لكن البوا لاتلتهم فريسة ميتة ؟ وللسبب ذاته لم أقيدك أو أخدرك .. والآن وداعًا ! »

حاولت النهوض مرتين ، لكنى كنت أسقط فى كل مرة ، فصحت غير فاهم :

ـ « ما معنى هذا ؟ »

ـ « لقد تحورت العجوز إلى بوا عاصرة .. إنها أجمل أعمالى الفنية .. وقد نضجت البوا .. نضجت جدًا ولم تعد الفئران كافية لإطعامها .. هذه هى المشكلة الدائمة التى تطاردنى .. لكنها قادرة على ابتلاعك دون شك ، ولتكن وجبة دسمة تكفيها شهرًا .. سترى أية روعة فى هذه العملية .. إن عظام فكيها متحركة تسمح لها بابتلاع فريسة تفوق حجم رأسها بمراحل .. ولو طال الابتلاع يمكنها دائمًا أن تخرج قصبتها

الهوائية من تحت جسدك ، لتستنشق الهواء مباشرة فلا تختنق !! يا للكائن الرائع ! »

ـ « لماذا لم تبدأ تحويلى إلى ثعبان بدورى ؟ »

ـ « إنها عملية معقدة تحتاج إلى وقت .. تحتاج إلى كثير من التعويذات على باب شقتك وسوائل كثيرة من تحته .. تحتاج إلى حيلة تشرب بها الترياق .. أما الآن فالحاجة ماسة إلى إطعام هذه الأفواه .. إن من لا يستحق شرف التحول لثعبان يصلح بالتأكيد فريسة .. وأنت لا تستحق الثعبانية ! »

ـ « هل تعنى أن كل هذه اللعبة كان الغرض منها جعلى أدخل هذه الشقة ؟ »

ـ « طبعًا .. تدخلها حرًا غير مكبل وبكامل وعيك ، وإلا لن تأكل البوا شيئًا .. كنت أعرف أنك ستتسلل إلى الشقة أمس ، لكن فشلت الحمقاء فى اللحاق بك ، إلا أن الفرصة متاحة اليوم ! »

ـ « إذن أنا لم أقتلها أمس حقًا .. »

ـ « أنت تحتاج لضربات أقوى وأكثر كى تقتل ثعبانًا ضخمًا يافعًا كهذه !! »

ـ « وكيف تدخل أنت الشقة وتخرج منها ؟ »

ـ « أدخلها بمفتاحها ومن بابها كأى مواطن محترم .. إننى أدخل وأخرج من أية شقة فى هذه البناية ، لأن جميع السكان صاروا ملكًا خالصًا لى .. أنا سيد الثعابين وحارسها ! »

ثم صاح فى مرح :

ـ « تذكر ! قاوم بشراسة ولا تبع حياتك سهلة .. إن مقاومة الفريسة تمنح البوا العاصرة لذة غامرة .. هكذا تمنحها شعورًا بالإنجاز !! »

وهزّ رأسه محييًا وابتعد ، وفى الوقت المناسب قبل أن أغالب الدوار وألحق به .. وفى اللحظة

التالية وجدتنى فى الظلام وحدى .. من الواضح أنه خرج عبر باب الشقة ، وأغلقه وراءه .. ترى كم الساعة الآن ؟ لا شىء يضايقنى مثل اختلال ساعتى البيولوجية .. هذا يزيد من حالة الدوار لدى ، ويجعلنى على شفا القىء أو فقدان الوعى .. هل هو نهار أم ليل ؟ رباه ! أريد أن أستعيد توازنى .. لست طبيبًا لكننى أعتقد أننى أعانى ارتجاجًا مخيًا شديدًا .. لكمة كهذه التى تلقيتها يموتون بها فى مباريات الملاكمة ..

نهضت على قدمين من عجين ، فاستندت إلى الجدار .. كل هذا كابوس .. كابوس لن يلبث أن ينتهى .. لكن صوت الفحيح الغاضب جعلنى أعرف أن كل هذا حقيقى .. عقلى الباطن لا يستطيع اختراع فحيح كهذا ..

يجب أن أشعل نارًا .. يجب أن أضلل هذا

المسخ .. لكن كيف السبيل إلى المطبخ وأنا لا أعرف مكانها بالضبط ؟ وهنا جاءت الإجابة ..

كانت فى الصالة تواصل زحفها .. وبنفس الطريقة الشاذة التى رأيتها أمس ، كأنما ليس لها ساقان ..

الجميل فى طريقة الموت الغريبة هذه ، هى أنه ما من جثث يجب الخلاص منها ، ولن يبقى منى سوى حذاء أو خرقة ثياب ، ولن يعرف أحد أبدًا حقيقة ما حدث ..

لابد من سلاح .. لابد ..

كان المسخ يواصل تقدمه فى الصالة ببطء .. بإصرار .. والرأس يتأرجح يمينا ويسارًا .. حتى فى دنيا الثعابين لن يكون لها مستقبل .. إنها ثعبان ممسوخ يثير التقزز لدى أى ثعبان محترم .. ترى ماذا كان حالى سيغدو لو كانت هذه أفعى حقيقية ؟ بالتأكيد كان رعبى ليقل نوعًا ..



ولكن فى اللحظة التالية شعرت بشىء قوى يلتف حول خصرى ، ويسقطنى إلى الوراء ..

هرعت إلى النافذة الموصدة ، ورحت أعالج مصراعها كالمجنون بيد واحدة .. كان وتد رفيع من الخشب قد تم تثبيته على سبيل تدعيم المصراع لكنى انتزعته ، وفى النهاية استسلم المصراع لى ، واستطعت أن أفتح الشيش .. كاد نور الغروب الخارجى العذب يجد طريقه إلى الداخل ، ولكن فى اللحظة التالية شعرت بشىء قوى يلتف حول خصرى ، ويسقطنى إلى الوراء ..

وسقطت أرضًا وحاولت أن أصرخ .. لكن الهواء لم يتسلل إلى رئتى أصلاً .. كان الضغط هائلاً ..

واستطعت الآن أن أتبين ما يمسك بى .. لقد تحولت المرأة تمامًا لكن رأسها ما زال بشريًا ، وإن اكتسب بشاعة جديرة بالأفاعى .. استطال جسدها إلى ما يقرب الخمسة الأمتار لكن ثلاثة منها كانت تلتف الآن حولى ، وتزيد من قوة الالتفاف .. ولاحظت أن الذراعين قد ضمرا

تمامًا .. ربما تحولا إلى المهمازين اللذين يميزان الأصلات والبوا لدى علماء الزواحف ..

الآن ينفتح الفم .. ينفتح إلى حد لا يصدق .. وأرى اللسان المشقوق والبلعوم الشبيه بفتحة مغارة حمراء ملساء .. رباه ! لماذا لم تتحول إلى ثعبان سام ؟ كان هذا أفضل وأسرع ..

فى اللحظة التالية تقلصت يدى السليمة على شىء .. والشىء كان قطعة الخشب الوتدية التى انتزعتها من النافذة .. كانت غير مدببة لكنها تصلح بالتأكيد .. ودون تفكير أولجتها بعمق فى حلق الأفعى ..

وتذكرت قصة الضب الذى حاول الثعبان ابتلاعه ، لكن الضب اعتصر فرع شجرة بين فكيه ، ليشكل عائقًا يمنع الثعبان من إتمام المهمة .. أين

قرأت هذه القصة ؟ أين ؟ أشياء غريبة يتذكرها المرء وهو فى قبضة ثعبان ..

رباه ! لابد أن الضرر كان بالغًا .. لقد تراخت القبضة العاصرة عن خصرى .. ثم بدأت تقلصات مريعة فى الجسد بأكمله .. من جديد انبثق دم التخويف من العينين والفم .. وبعد دقائق بدا لى أن الأمر قد انتهى بالتأكيد ..

همد الشىء المريع ..

وجلست على الأرض ألهث بضع دقائق .. يبدو أننى بكيت كذلك من فرط انفعالى ..

* * *

نهضت .. وأزمعت أن أفتح النافذة لأثب منها إلى خارج هذا المنزل المشئوم .. وكدت أفعل لولا أن سمعت من يصيح فى جزع :

- « السيدة (رتيبة) ! أنت قتلتها ! »

كان شعاع شمس أخير كئيب قد تسرب إلى الحجرة ، لكننى لم أحتج إلى ضوء كى أعرف من القادم .. هذه (هيام) ..

كانت واقفة عند باب الغرفة ، تغطى فمها محاولة كتمان صرخة أخرى ، ولا أدرى متى دخلت ولا كيف .. لكنها جاءت فى لحظة غير ملائمة بالتأكيد ..

وبدأت تتقدم ببطء ، وفى عينيها نظرة اتهام دامعة ، وهما لا تبرحان الجثة ..

قلت وأنا أنهض راجفًا :

- « كيف دخلت هنا يا (هيام) ؟ »

- « كان الباب مفتوحًا .. وخفت أن يكون ما حدث قد حدث .. ليتنى مت ولم أر هذا المشهد !! »

ابتلعت ريقى وتراجعت للوراء ، وقلت :

- « ما دام الأمر كذلك .. ألا تجدين أنها لم تعد هى المرأة التى عرفتها ؟ لقد تحولت إلى ثعبان ، ولم يكن مناص من القتل .. »

- « ماذا تعنى ؟ »

ماذا أعنى ؟ نظرت إلى الأرض إلى حيث كانت جثة ثعبان يصل طولها إلى خمسة أمتار ؛ فلم أر إلا امرأة عجوزًا ميتة ! إننى فى مأزق حقيقى .. لقد أدى موت المرأة إلى رجوعها لطبيعتها ، كما يحدث فى السينما عندما يموت المذءوبون .. أنا لم أر السينما قط لكنى أعرف

هذا المشهد جيدًا .. سيكون عسيرًا بعض الشىء أن أفسر لماذا دسست وتدا خشبيًا فى حلق هذه العجوز المسالمة ..

يا له من مأزق !

* * *

١٢ ـ الحمقى يعودون دائمًا ..

« عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان ، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا فى الأرض الطينية .. أيتها الأرض .. ابتلعى ثانية ما خرج منك ! »

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

* * *

وقالت (هيام) وهى تمد يدها نحوى بقطعة من قماش :

ـ « اسمع أيها التعس .. أنا لن أسامحك على هذا أبدًا .. لكننى لن أتكلم .. هلم أغلق هذه النافذة وتخلص من بصماتك ، ثم غادر هذا المنزل .. »

حقًا .. لابد من إزالة البصمات الكثيرة .. لكن ما جدوى هذا ؟ إن الشرطة ستجدنى فى جميع الظروف ..

قالت (هيام) وهى تتعلق بذراعى :

ـ « ليسامحنى اللّه .. إن الحب يدفعنى إلى خيانة هذه المرأة العجوز دفعًا .. هلم !! »

ـ « سرنى أنك لم تملئى الكون صراخًا كما هو المفترض .. »

وأصخت السمع .. كنت أعرف أننى سأسمع هذا الصوت .. تتتتتتتك تتتتتتتك ! إنه آت من مكان ما تحت تنورتها .. أستطيع أن أرى الحلقات الكيراتينية المتداخلة تهتز باستمرار .. حلقة جديدة تضاف مع كل انسلاخ جلدى جديد .. أنت أيضًا !! وهذا بالطبع يفسر هذه الشهامة غير المفهومة غير المنطقية .. بعض الثعابين تملك

القوة المباشرة لتنال ما تريد .. لكن بعضها يحتاج إلى التحايل .. إلى النعومة .. ومن هذه الثعابين الحية ذات الجرس !! إنها تتحايل حتى تدنو منك ، ثم تثب وثبة واحدة وتفرغ سمها الناقع فى عروقك ..

لكنى لم أوذ (هيام) .. على الأقل ليس بشكل مباشر ..

لم أستطع حتى لو لدغتنى بألف ناب ..

فى اللحظة التالية دفعتها بقوة للوراء ، وكان التوقيت مناسبًا لأننى فى اللحظة ذاتها رأيتها تطير فى الهواء باتجاهى وهى تطلق ذلك الفحيح .. هكذا يموت فأر الحقل قبل أن يعرف أنه مات .. تفاديتها بصعوبة ثم ركضت إلى الباب فالصالة ..

* * *

وكانوا جميعًا هناك يقفون فى الصالة المظلمة (دائمًا مظلمة فى كل أوقات اليوم) ..

استطعت أن أرى الطلبة الأربعة جيرانى .. وأبا (هيام) الموظف المحترم ..

تراجعت للوراء متوقعًا الأسوأ ، وصحت فى عصبية .

ـ « لا أريد أن يعترض طريقى أحد .. أنا لست قاتلا .. لا أريد المزيد من الدماء ! »

قال الأب ـ وهو بطبيعة الحال أكثرهم قدرة على التعقل والهدوء :

ـ « لو حاولت أن تتعقل يا بنى ، فسوف تجد أن العصبية لن تقودك إلى أى مكان .. لا مهرب من هنا .. لا مهرب .. »

كنت قلقًا من جهة ظهرى .. ترى أين (هيام) الآن ؟ بالطبع تزحف ببطء لتنشب أنيابها فى عنقى .. أريد سلاحًا .. ولكن لا .. السلاح يعنى المزيد من القتل .. بينما لا يستحق القتل من كل

هؤلاء إلا واحد .. محاسب اسمه (حسام) مازال يأمل أن تحكم (واجيه ..

وميزت على الفور هذه الوقفة المنتصبة لدى أحد الطلاب .. ميزت الأسلوب الذى أرجع به رأسه إلى الوراء ونفش صدره .. ميزت النظرة الشريرة فى عينيه .. وانحنيت فى الوقت المناسب تمامًا لينطلق رشاش السم عابرًا الصالة .. يقطع مسافة خمسة أمتار ويمر فوق رأسى ، ثم يصطدم بالجدار خلفى ويسيل على الأرض ، ولو لامسنى لأصابنى العمى حالا .. ربما كان العمى مؤقتًا ، لكنه يعطيهم الفرصة الكاملة للظفر بى ..

هذا الفتى يلعب دور الكوبرا الناشرة إذن .. ففيم تخصصَ الباقون ؟

قال الأب للفتى بنفس الطريقة المتزنة :

ـ « لا تندفع يا (حامد) .. إن هذا الفتى مهذب ولسوف يقتنع بالمنطق بعد قليل .. »

قلت وأنا أبحث بعينى عن ثغرة فى صفوفهم :

ـ « لن تقنعنى لأنه لا منطق هناك .. »

ـ « نحن نعرف أنك قتلت السيدة (رتيبة) وبرغم هذا نحاول أن نتفاهم معك .. »

ـ « بل هو الالتهام كما أرى .. أنتم بحاجة إلى وجبة دسمة .. لا أكثر ولا أقل .. »

ـ « لو هدأت قليلاً فلسوف .. »

وقبل أن يكمل كلامه انطلقت ساقى فى ركلة إلى أقرب الفتية ، وقد ظلت أنيابه الطويلة فى ذاكرتى دهرًا .. وفيما بعد عرفت أنه يلعب دور حية (الجابون) .. أطول أنياب فى دنيا الأفاعى ..

ومررت من تحت رأس الأب الذى بدأ فى الفحيح ، وبحثت عن الباب .. الباب .. أين الباب حين تريد واحدًا ؟ وهنا وجدت أحدهم يقف سادًّا المدخل وهو يطلق فحيحه الشرير ..

انفتح الباب وظهرت الزوجة .. أم (هيام) .. كانت تصرخ فى هستيريا .. وصاحت وهى تعتصر كتفى الفتى من الخلف لتمنعه من إعاقتى :

ـ « اتركوا هذا البائس بالله عليكم ! ألا ترون ما وصل الحال بكم ؟ ألا تفهمون ما صرتم إليه ؟ »

هنا أنشب الفتى أنيابه فى ذراعها .. لم تكن لدغة وانتهى الأمر كما كنت أتوقع ، بل ظل يعتصر الذراع بين فكيه ، ويمضغ أكثر فأكثر كأنه يحاول إفراغ أكبر قدر من السم ..

بالطبع لم أفهم هذا وقتها ـ ومن لديه دقة الملاحظة فى ظروف كهذه ؟ ـ لكنى فيما بعد عرفت السبب .. بعض الأفاعى لها نابان أماميان كأنيابنا نحن البشر ، وهذه الأفاعى هى الأكثر رقيًّا وتطورًا .. إنها تلدغ لدغة واحدة ثم تبتعد لتنتظر موت فريستها البطىء أو السريع .. البعض الآخر

له أنياب خلفية لهذا يضطر إلى التشبث بالفريسة أطول فترة ممكنة ، ومن هذه الحيات حية (البومسلانج) .. هذا الفتى كان (بومسلانج) وكان يؤدى عمله جيدًا ..

بالطبع كنت قد كففت عن الثقة بالناس ، ولم أعتبر ما قامت به الزوجة إلا مؤامرة أخرى من مؤامرات الأفاعى ، لهذا ـ وقد منحنى ظهورها الوقت الكافى ـ استغللت فرصة هذه الفوضى ، وجريت خارجًا من الباب ، ووليت الأدبار ..

للمرة الأولى فى حياتى أعشق مرأى الحارة إلى هذا الحد ..

* * *

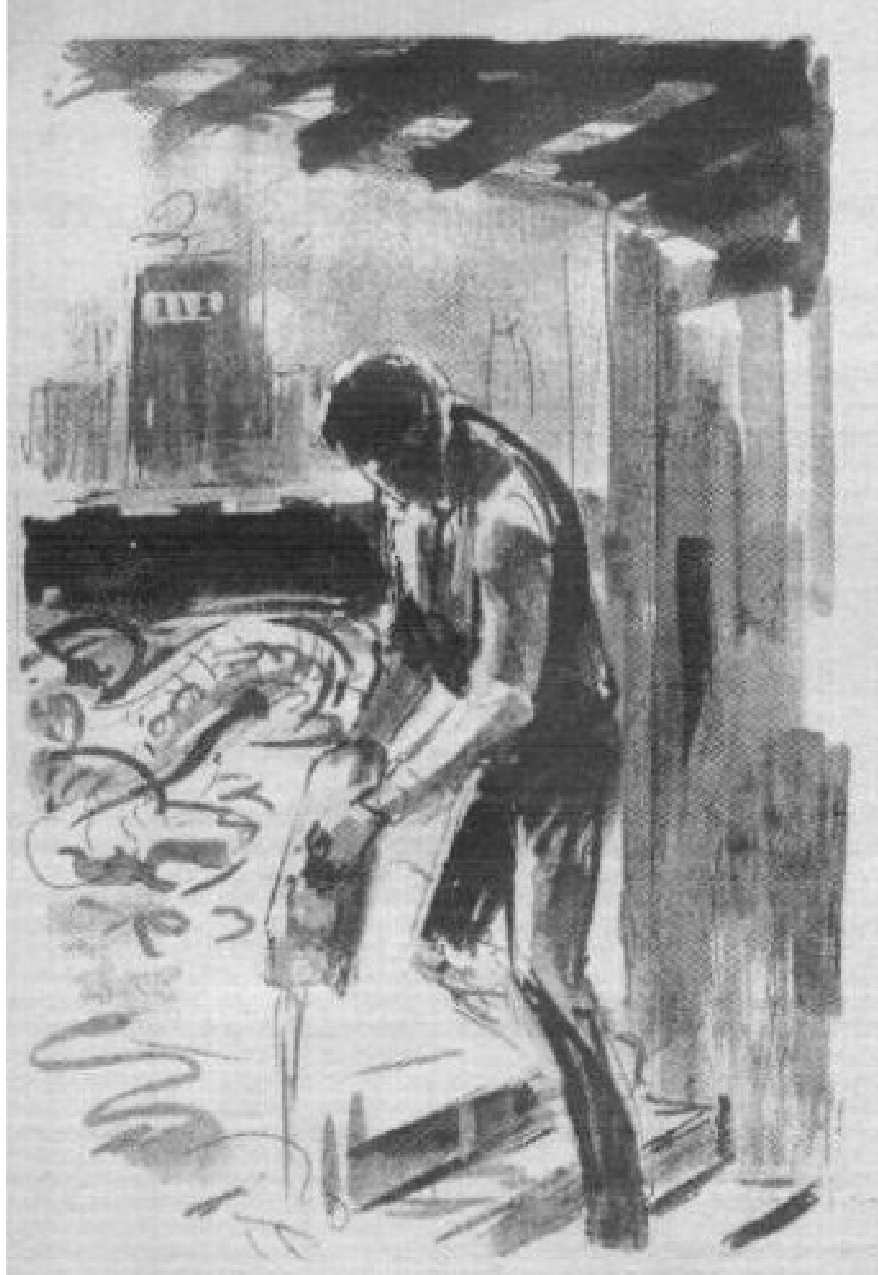
واختفيت طيلة الليل والنهار التالى فى شوارع القاهرة المزدحمة ..

كان تقديرى للأمور هو أن أحدًا لن يبلغ

الشرطة .. الآن وقد تحول المنزل إلى جحر ثعابين لم يعد أحد راغبًا فى إقحام الشرطة فى الموضوع .. ثم إن الثعابين تلتهم بعضها على كل حال ، ولن تحدث جثة العجوز فارقًا كبيرًا .. المشكلة هى مكان ومصير ذلك الوغد المدعو (حسام) ..

كان تقديرى للأمر كذلك أن الزوجة ـ غالبًا ـ لم تتأثر باللعنة بعد ، ومعنى هذا أن البائسة عاشت وهى ترى زوجها وأولادها يتحولون إلى مسوخ .. هذا وضع اعتادته وحاولت أن تتأقلم معه ، لكنها لم تتحمل أن ترى انفراد الثعابين بى ، ومحاولتهم التهامى .. فلو كان حدسى صحيحًا أعتقد أنها الآن ميتة ، وليس بوسعى عمل شىء لإنقاذها ..

وعندما جاء المساء كنت قد اتخذت قرارى .. قرارًا قاسيًا باردًا .. باردًا لكن تنفيذه سيتم بالنيران ، لم يعد لدى خيار .. اتجهت إلى بعض تجار الأدوات المستعملة ، فابتعت ثلاثة جراكن ، ثم عرجت إلى



وغمرت الجلود المتناثرة هناك بقدر لا بأس به ..
ثم بدأت أنزل الدرج مواصلاً مهمتى الكريهة ..

محطة بنزين قريبة وملأت اثنين بالبنزين ومن أحد البقالين ملأت واحدًا بالكيروسين ..

مشيت بحملى الثقيل وذراع واحدة سليمة عبر شوارع الضاحية ، عالمًا أن نهاية كل شىء هى سؤال متشكك من مخبر عن هذا الذى أحمله .. لكنى لم أخش شيئًا ، وبشكل ما أدركت أننى سأنجز مهمتى بسلام .. لن يعترضنى أحد .. إننى أنقذ المدينة ، ولسوف يكون التوفيق حليفى ..

اتجهت إلى المنزل المشئوم .. وبثقة صعدت إلى السطح وبدأت عملى ..

كان باب غرفة المحاسب إياه - كاهن (واجيت) لو لم يكن أحدنا مخبولاً - مغلقًا .. لكنى لم أجرؤ على طرقه .. وبدأت أسكب الكيروسين مبتدئًا بالسطح ، وغمرت الجلود المتناثرة هناك بقدر لا بأس به .. ثم بدأت أنزل الدرج مواصلاً مهمتى الكريهة .. كان الظلام قد بدأ يخيم لكنى كنت قادرًا على رؤية ما أفعله ..

أخيرًا وصلت إلى مدخل البناية وهو الجزء الأخطر من العملية ، فسكبت ما تبقى من البنزين هنا وهناك ، ثم تراجعت للوراء وأخذت شهيقًا عميقًا .. أخرجت عود ثقاب واستعددت لأحكه بالعلبة ، حين ..

حين دوى الصوت الجهورى :

ـ « لا تتحرك يا فتى !! »

* * *

« عسى أن يقبض أفعوان على أفعوان ، عندما يجد فرس النهر الصغير نفسه مغروسًا فى الأرض الطينية .. أيتها الأرض .. ابتلعى ثانية ما خرج منك ! »

تعويذة مصرية قديمة لاتقاء خطر أفعى (سيبا)

* * *

لم يكن عسيرًا أن أعرف أن أصحاب هذه الأجساد الضخمة والكروش العملاقة والنظرات البوليسية الصارمة هم مخبرو شرطة .. الجلباب من فوقه المعطف الصوفى الثقيل والكوفية ولو كنا فى أغسطس ..

كان أحدهم ـ ذو الجلباب ـ يمسكنى من قذالى .. بينما آخران بثياب عادية يحيطان بى ، وأحدهما ينتزع الثقاب من يدى .. ويقول بانتصار :

ـ « أنت متلبس ! »

ثم ألقى بالثقاب على الأرض وداسه بحذائه الحكومى الغليظ ، ومن مكان ما برز ضابط شاب متحمس أبدى استحسانه لأداء (بسطويسى) ـ وكل المخبرين اسمهم (بسطويسى) ـ ومن مكان آخر برزت سيارة البوكس متأهبة لنقل ذلك المجرم الخطير إلى القسم ..

وقال الضابط :

ـ « منذ اختفائك بعد قتل العجوز ونحن نراقب المكان بعناية .. كنا نعرف أنك ستعود .. »

ولكن أين المحاسب ؟ أين هو ؟

كان زحام يحتشد حولنا .. سكان كثيرون صحوا من نومهم ووقفوا يراقبون المشهد فى استمتاع ، ونظرت حولى لأجد الرجل ـ كما توقعت ـ واقفًا وهو يعض أنامله فى توتر ، وقد بدا عليه الإعجاب بيقظة الشرطة ! قلت له دون تعبير معين فى صوتى :

ـ « أنت أبلغتهم .. ! »

قال بصوت تمثيلى لا يثير الريبة ، عالٍ كى يسمعه الجميع :

ـ « لم أتوقع أن تقتل العجوز .. حسبتك ملاكًا .. إلا أن طالبة جامعية تدعى (هيام) رأتك تغادر الشقة مذعورًا .. ثم تختفى طيلة النهار .. إن

قاعدة عودة المجرم لمكان الجريمة لا تخيب .. والآن عدت لتحرقنا جميعًا ! ولا أدرى سبب هذا »

ثم ارتجفت يداه فى ميلودرامية وتحشرج صوته :

ـ « ألم تكفك كل هذه الدماء حتى تنوى حرق الأبرياء ؟ »

ومد يده بلفافة تبغ لأحد المخبرين على سبيل التودد والسماح له بالدنو منى أكثر ، وهمس فى أذنى :

ـ « أنت أحمق .. وليكونن تفسير الأمر عسيرًا بعض الشىء .. يمكنك أن تحكى لرجال النيابة كل شىء عن الثعابين ، وعن العجوز التى تحولت إلى بوا عاصرة ، وعن كاهن (واجيت) الذى يعمل محاسبًا .. هيا لا تخجل ! إنه السبيل الوحيد كى لا يعدموك شنقًا .. إن مصحة الأمراض العقلية أهون من الإعدام على كل حال ! »

ثم أردف وهو يبتعد :

ـ « لم يتغير شىء .. سأواصل ما بدأت !! وغدًا سيكون مجتمع من الثعابين ، ولأكونن أنا كاهنه الأعظم ! »

نظرت إليه وهو يبتعد وقلت لنفسى إنه محق فيما قال .. أنا أحمق .. وعلى أن أتمسك بقصتى العجيبة لأنها مهربى الوحيد من تهمة القتل العمد .. ثم من يدرى ؟ ربما أنا مجنون حقًا .. ما من مجنون يعرف أنه كذلك فى التاريخ ..

وفى اللحظة التالية كنت أدفع دفعًا إلى (البوكس) ، بينما احتشد سكان المنطقة يرمقوننى فى استمتاع وشىء من الرهبة ، وسمعت من يهمس لجاره :

ـ « طالب فاشل .. قتل العجوز ليسرقها !! »

لم ألمه لحظة .. فلا يوجد عندى ما يقال ..

لقد وقعت فى شرك محكم .. شرك من النوع الذى يفهمه الفأر على الفور ، حين يترك نفسه لمخالب القط تعابثه .. إنه أحكم من أن يضيع وقته الثمين ووقتها فى محاولات فرار لا تجدى ..

* * *

وكانت هذه قصتى ..

وبالطبع لم يجد رجال الشرطة ما يريب فى البناية كلها .. لا ثعابين فى الشقق ، ولا أناس يتحولون إلى ثعابين .. لقد اختفى كل ما من شأنه أن يجعل قصتى ذات مصداقية ما ..

لا داعى لأن أحكى عن النظرات الحائرة الساخرة قليلاً التى قابل بها الجميع قصتى عن كاهن (واجيت) .. وحتى المحامى الذى انتدبه أبى بعد ما باع الجاموس ، قال لى فى عصبية وهو يلملم أوراقه :

- « تبًا ! اسمع يا بنى .. أنا لا أستطيع مد يد العون لك ما لم تقل كلامًا معقولاً .. قل إنك قتلت العجوز أو إنك لم تقتلها .. وفى الحالين سأحاول مساعدتك .. المهم ألا تحدثنى عن الثعابين مرة أخرى .. »

- « لكن هذا هو ما حدث يا أستاذ (عونى) .. »

- « وأنا لا أصدق حرفًا من هذا والمحكمة نفسها لن تتركنى أقول هذا الهراء .. »

قربت رأسى من وجهه وقلت همسًا :

- « ثمة ورقة واحدة ستلعب بها .. ستزعم للمحكمة أننى مجنون .. »

قال فى تهكم لم أفهمه وقتها :

- « حقًا ؟ لن يكون إقناعهم بهذا عسيرًا على كل حال .. فأنت تجيد التظاهر بهذا ! »

- « إنك ستحاول .. أليس كذلك ؟ إننى أكره المشنقة يا أستاذ (عونى) .. أكرهها خاصة وأنا لم أبلغ العشرين من عمرى بعد .. »

أخذ شهيقًا عميقًا ونظر لى فى كراهية ، ثم حمل أوراقه وانصرف ..

* * *

وانتدبوا طبيبًا نفسيًا فحصنى ، ثم أعلن أننى مجنون خطر .. والبقية تعلمونها جميعًا .. أنا لم أعدم فأين أنا إذن ؟؟؟!! طبعًا أنا أكتب هذه السطور كجزء من العلاج ..

هل أنا مجنون ؟ بالطبع لا .. أنا وأنتم فقط نعرف أن ما حدث صحيح ..

فى مكان ما فى بناية ما ، يوجد أشخاص يتحولون ببطء إلى ثعابين .. وهذا وباء سيعم المجتمع بعد قليل .. ربما بعد أعوام .. ربما بعد أشهر .. ربما تم بالفعل ..

متى سيلاحظ الناس حقيقة هؤلاء المتحولين ؟
لا أدرى .. وربما لن يلاحظوها أبدًا لأن المتحولين لن يصيروا أفاعى تمامًا .. سيظلون يحتفظون بلمسة بشرية خادعة .. فقط سيعرف الناس الحقيقة بعد فوات الأوان .. وحين يتحول أقرب أقربائهم إلى ثعابين ..

راقبو الأفاعى ! لاحظوا أية زيادة غير مبررة فى عددها .. لاحظوا أية أنواع غير مألوفة منها .. لاحظوا الأشخاص الذين لا جفون لهم ، والذين يحبون الدفء أكثر من اللازم ..

إن الكابوس هناك بالخارج .. لا يعلم إلا الله متى ينتهى ، ولا متى يتم القضاء عليه ولا كيف .. فقط اقرءوا كل شىء عن الثعابين كما أفعل أنا الآن .. أعدوا أمصالكم المضادة لسم الأفاعى وانتظروا ..

* * *

إن اسمى (محمود شوقى) ولا أتوقع بالتأكيد أن يثير هذا الاسم رعبكم ، أو يجعلكم ترتجفون هيبة وتوقيرًا ، أو تفركون أكفكم فى شغف .. فى الواقع لن يسمع أحد عن هذا الاسم شيئًا بعد اليوم !!

* * *



وبعد .. كانت هذه نهاية صديقنا المتحمس (محمود شوقى) .. بالطبع لا أستطيع أن أضيف حرفًا .. فالقصة كلها حكاها لى فى ساعة صفاء ، قابلته فيها فى مصحة عقلية ، وبالتحديد فى أثناء مباراة ترفيهية أقامها النزلاء هناك .. كنت أقوم بزيارة لصديقى القديم د. (محمد إبراهيم) أستاذ الأمراض النفسية ، وقد جلسنا أنا وهو نرمق المرضى يلعبون الكرة باعتبارها من الطرق العلاجية الصحيحة .. كان تصورى لهذه المستشفيات هو زنازين مبطنة يجول بينها ممرضون أقوياء شرسون ، وحمامات ماء مثلج

وصدمات كهربية .. إلخ .. وقد دعانى صديقى لأرى أن الأمور لم تعد بهذا السوء .. أشار إلى أحدهم ـ وكان شابًا فى العشرين من عمره ـ وقال :

ـ « هذا الفتى كان طالبًا يبشر بالخير ثم .. »

ـ « .. ثم لم يعد يبشر به .. هذه الأشياء تحدث .. »

أردف وهو يرقب المباراة :

ـ « ثمة نماذج عديدة هنا يجد المرء نفسه حائرًا فى تصنيفها .. كل الاختبارات النفسية تؤكد رجاحة عقله ، لكن ما يقوله يدل على حالة بارانويا متقدمة .. »

سألته فى غباء من لا يفقه شيئًا فى الطب النفسى :

ـ « وهــل يوجـد احتمــال أن مـا يقـولـه صحيح ؟ »

مط شفته السفلى بمعنى أن هذا عسير ، ثم قال ضاحكًا :

ـ « صعب .. صعب جدًا .. إننا نعرف المرض النفسى حين نراه .. »

ـ « وما هو الحل لو كان الصادق الوحيد فى المستشفى هو بالصدفة هذا الشخص ؟ »

ـ « يمكنك أن تتكلم معه وتكون رأيًا .. »

فلما رأى ترددى قال لى :

ـ « لا تخـف .. لا تتصـرف كالجهـلة .. إنـه مسالم جدًا ولـن يمـزق حنجرتك بأنيابه لو كنت تفكر فى هــذا .. كل ما يفعله هنـا هو أنه يطالع

الكثير جدًا من كتب الأحياء ، وبالذات التى تتكلم عن الثعابين ! »

ـ « ثعابين ؟ »

ـ « .. ويبحث عن طريقة للتحول إلى حيوان مانجوس !! »

ـ « مانجوس ؟ »

ـ « قلت لـك لا تقلـق .. هـذه ضلالات غير عدوانية .. »

ـ « ستقول هذا إلى أن تجد نصل المدية على عنقى ، والفتى يأمركم بفتح باب المصحة له وإلا ذبحنى .. »

ـ « لا شىء يغرينى بفتح باب المصحـة مهما كانت التضحيات ! »

وابتسم ونادى النزيل ، فجلسنا جلسة طويلة طويلة .. وفيما بعد جعلت الفتى يكتب قصته بالتفصيل ، وهى الأوراق التى قرأتموها الآن .. ولقد سألنى د. (محمد) عن رأيى بعد سماع القصة ، فسألته بدورى :

- « لماذا لا يتطوع أحد بزيارة العنوان المذكور ليرى ما حل بهؤلاء القوم ؟ »

- « لأننا لا نصدق المجانين .. هذا كل شىء .. »

- « قلت إن هذا الفتى لا يتصرف كالمجانين .. »

- « لكنه يقول ما يقولون .. لهذا يعالج كما يعالجون » .

وبعد صمت قليل سألنى :

- « ما زلت لا أعرف رأيك .. »

فى ثقة قلت :

- « لا أدرى .. هذه هى الإجابة المحترمة والمناسبة والوحيدة - ربما - التى يمكن بها الرد على أسئلة من طراز مثلث برمودا وقارة (ليموريا) وأسرار التحنيط .. »

نعم أنا لا أدرى ، ولست واثقًا من شىء ..

لا أدرى ، ولست مؤهلاً للحكم على الحقيقة ..

يمكنكم أن تقرءوا القصة من جديد وتخبرونى برأيكم .

* * *

فى القصة القادمة أعود لعالمى المعتاد ، وألقى

طفلاً من نوع خاص .. طفـلاً سيقدر لـه أن يغير مجرى حياتى .. ذلك المجرى الذى يتغير أكثر من اللازم هذه الأيام ..

ولكن هذه قصة أخرى ..

* * *

د. (رفعت إسماعيل)
القاهرة

تمت بحمد الله